فلسفة

آرثر شوبنهاور

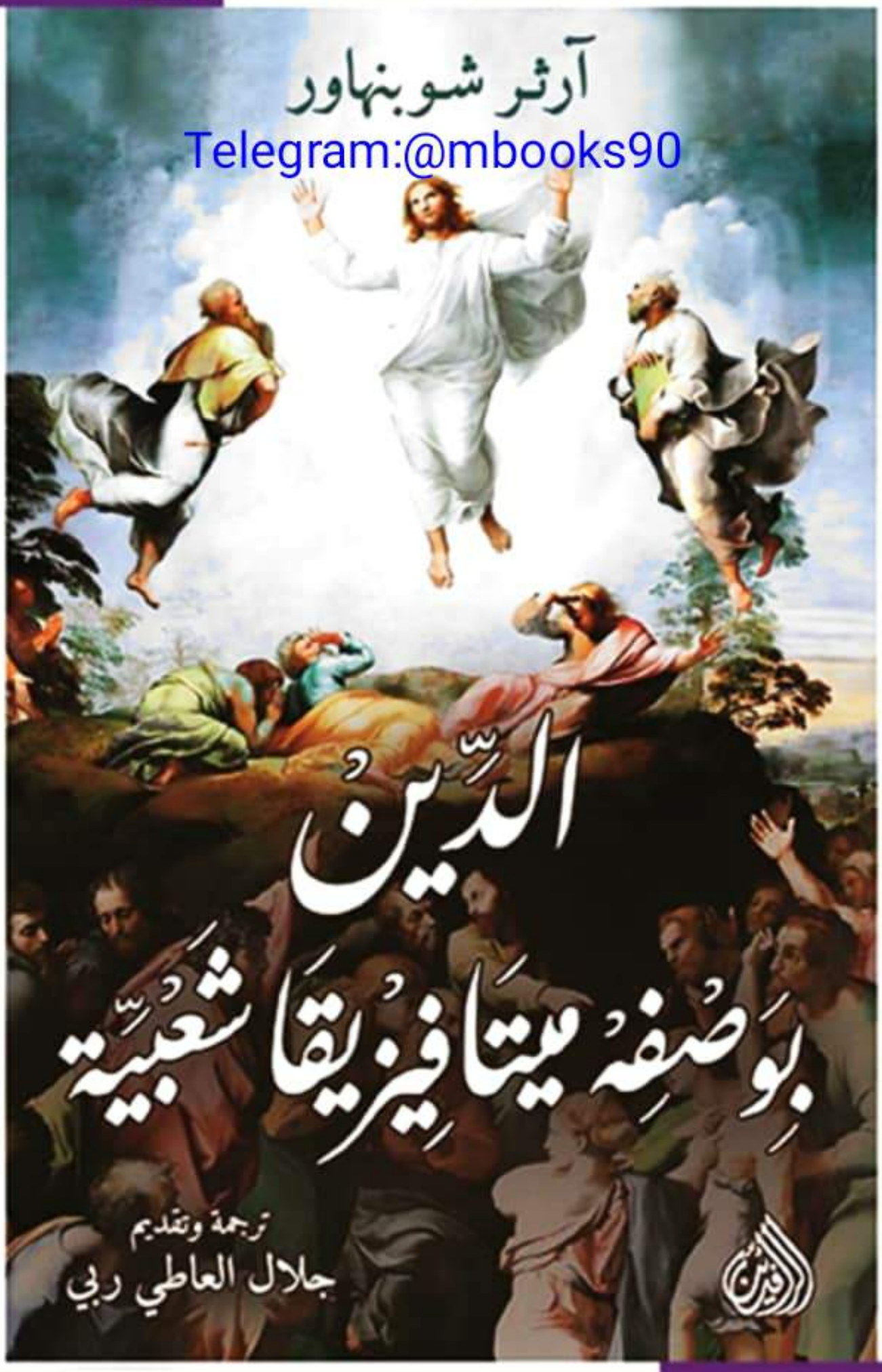

Telegram:@mbooks90

الدِّينُ بِوَصفِهِ ميتافيزيقا شَعبيّة

ترجمة وتقديم

جلال العاطي ربي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على سبيل التقديم..

وأنت تطوف في غابة أفكار **الحواشي والبواقي** (Parerga und Paralipomena) وعرة المسارب ومتشابكة المسالك، بوسعك أن تقف هنيهة لتتملّى وجهك كما فعل نرسيس على صفحة نهر «الحكمة من الحياة»، أو أن تتذوق جمال الطبيعة في «ميتافيزيقا الجميل والاستيطيقي»، أو أن تجلس جلسة اعتراف وبوح مع الذات وظهرك مسنود على شجرة «**الأخلاق**»، أو أن تغيب عن العالم وأنت تتفكر في أسئلة الما بعد وعينك على كهف المجهول الذي تدفع إلى ولوجه أسئلة تقض مضجعك «**عن الروح والموت والانتحار وعبثية الوجود**»، أو لما تسخر من الوجود والموجود حينما تتداعى على ذهنك مدرارًا «**الطرائف والأمثال والحكايات الخرافية**»، أو حين تلبس جبة المنطقي «**في المنطق والجدل**» أو تنظر بمنظار العالم إلى «**العلم الطبيعي**» أو تتلحف بعباءة القانوني والسياسي في «**فلسفة القانون والسياسة**» أو سترة السيكولوجي البيضاء في «**ملاحظات سيكولوجية**» و«**مقالة عن النساء**»(1) أو تتسربل بسربال الأديب الهندي الجهبذ المتخصص في «**الأدب السنسكريتي**».

ولن تنتهي رحلتك الشائقة تلك في غابة **الحواشي والبواقي** إلا وأنت تحط جماع رحالك في أرض الدين المقدسة. أين سينفتح أمامك سبيل طويل ومرهق سيفضي بك راسًا إلى مفترق طرق مُحيّر يضعك أمام وجهات نظر متباينة غاية التباين ومتشعبة شائك التشعب، يتبنى فيها شوبنهاور منظورًا تلفيقيًا يؤالف بين أديان الشرق والغرب ويتداخل فيها الدين بالفن والأخلاق. إذ أن فلسفة شوبنهاور عن الدين وثيقة الصلات ومشدودة العرى بفلسفته عن الفن والأخلاق. ولا يخفى على متخصص في الفلسفة الشوبنهاورية أن المباحث الثلاثة تعكس ـ كمرآة شفيفة ـ سعيه الدؤوب إلى ترجيح كفة عجز التناهي الإنساني ومحدودية الإرادة والعقل في ظل سدور الأخير في مهامه الوهم، الذي يمثل الجوهر المؤسس وماهية الطبيعة الإنسانية.

Telegram:@mbooks90

ليس في ميسورنا الجزم برأي بخصوص أي الفواعل الثلاثة: الفن، الدين، الأخلاق،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو الأخطر شأنًا في أعين صاحبنا.. على الأقل لأنه لم يفصح عن ذلك صراحة. لكن فيلسوف العالم كإرادة وتمثل، وعلى خطى مثله الأعلى غوته، ينظر إلى الدين قبل أي شيء من الخارج، أي كإشكال مبسوط على محك التأمل الفلسفي. ولهذا فهو يضعه في نفس المستوى مع الفن والأخلاق، ويعزو إليه نفس وظائفهما.

غير أن الدين (موضوع هذه الترجمة) يمثل بالنسبة إلى شوبنهاور محاولة يائسة للعقل الإنساني من أجل أن يتصالح مع طوارئ الحياة وفوادح الدهر، وبخاصة لما تفجعه الحقيقة المرة التي مفادها: أن مثل الجمال والخيرية لا تتحقق تحققًا فعليًا في هذه الحياة الدنيا، فكيف يتصور شوبنهاور الدين داخل نسقه الفلسفي؟..

يقول ابن مدينة دانتزيغ الألمانية الشهير: إن الدين، مثله مثل إله الموت ياما؛ يملك وجهين: وجهًا ودودًا ومشرقًا ووجهًا شنيعًا وقاتمًا، وجهًا للحقيقة ووجهًا للكذب والخداع. ورجال الدين خليط فريد من نوعه من معلمي الأخلاق والكذبة الأشرين. وهو لا ينفي أن الدين (أيّ دين) ينطوي على كم وافر من الحقائق النافعة. وهذا ما يجعله قيمًا وعظيم الأهمية بما هو ميتافيزيقا شعبية، لأنه يروي ظمأ الحاجات الروحية لجميع أولئك الذين لا سبيل لهم إلى فهم الحقيقة العارية أو تحمل وزرها.

ومن طبيعة الحال، فالحقيقة العارية في رأيه، هي الفلسفة أو الحكمة. فالأديان تؤخذ من قبل سواد الناس على أنها بديل فعال وطيب الوقع لتلك الحقيقة التي لا تستغلق على أفهامهم البسيطة. إن الدين «بيرق عمومي للحق والفضيلة يرفرف بلا كلل في مهب الريح». ودلالته تكمن في الرمز، وفي المجاز أو الأليغوريا. فباعتبارها أداة لتهذيب الأنفس الفظة الجافية لدهماء الشعب، فقد كان للأديان النصيب الأوفى في أزمنة غابرة. ولهذا، فمن الأنسب أن يترك الدين لأولئك الرعاع كشر لا بد منه مثل «عكاز يتكئ عليه الوهن المرضي للروح الإنسانية، فالإيمان الديني مثّل في كل زمان ومكان سندًا قويًا للقانون والتشريع، بل إنه تبوأ مقامًا أكثر أهمية من ذلك، فقد كان أساس البناء الاجتماعي والسياسي بكامله.

ولعل أكثر من استغل الدين لمصلحته كان الحكام والأمراء الذين جعلوا الله بعبعًا رهبوا به عموم الشعب، حين كانت لا تجدي أية وسيلة أخرى نفعًا. ولهذا السبب،

فالأمراء والملوك والحكام هم أكثر الناس تمسكًا بالله. لكن، من الوجيه أن نعترف أن الدين فقد فعاليته كوسيلة للحكم واقتياد الشعوب. لقد كان الجهل وسيظل شرط حياة الأديان وازدهارها. لكن.. حين يأخذ العلم والفلسفة بزمام الأمر، فكل إيمان قائم على الوحي سيتبخر من تلقاء نفسه، مثلما تنجلي أستار الليل بطلوع نور الصباح. حتى وإن كان الدين في جوهره حقيقة، فهو حقيقة تتخفى خلف قناع الكذب. وإذا كان الكهنة يمنون النفس بفرض القناع المجازي قسرًا من أجل تلقين شرائعهم، فعاقبة هذا الكذب لن تكون من دون باهظ العقابيل.

ورغم ذلك فهم يصرون على أن يعرضوا القصة الرمزية بوصفها حقيقة مطلقة. ولهذا، فالدين ينيخ بثقله ويجثم على صدور الناس ككابوس ثقيل. ذلك أن أساس السر الأساسي وقوام الحيلة الحاذقة الخبيثة التي يستند إليها خدام الله منذ الأبد، في بقاع الأرض وأطرافها كافة، كان من جهة الحاجة الميتافيزيقية للبشر، ومن جهة أخرى.. الادعاء الكاذب بحيازتهم الحصرية وسائل إشباعها عبر واسطة الوحي. والحال أن هذا الأخير ـ أي الوحي ـ أمر مستحيل، لأن الأفكار التي تومض في ذهن إنسان لا يمكن بأي حال أن تأتي من كائن مستقل عن عالم بني الإنسان. ولكن بمجرد ما تترسخ وتتوطن في عقول عامة الناس هذه الفكرة عن الوحي، يمكن إذ ذاك للكهنة ورجال الإكليروس أن يتولوا زمامهم ويتحكموا فيهم بملء إرادتهم. فطالما وقف سدنة الدين أولئك للحقيقة بالمرصاد، كي تتجلى وتظهر للعيان بـ اسم الأفكار الدينية، كما حشدوا وسع طاقاتهم ليخنقوا تلك الحقيقة إلى الأبد. وذلك من طريق إرغام الدهماء الغشماء من ذوي العقول الصبيانية على الإذعان لألاعيبهم وأضاليلهم الشاذة. فأي وبال جنته الإنسانية بإسلامها القياد لرجال الإكليروس. ولعل هذا ما بسطه فيلسوف التشاؤم مشفوعًا بفيض واسع من الأمثلة، نهل فيه من كل الثقافات التي كان له معرفة بها.

وإجمالًا، فقيمة هذا الدين أو ذاك لا تتأتى من أن هذا يدعو إلى التوحيد والآخر إلى تعدد الآلهة والثالث إلى عقيدة الأقانيم الثلاثة أو وحدة الوجود، وإنما من منظوره إلى التفاؤل أو التشاؤم.. معياري الحياة حسب شوبنهاور. فكل دين من الأديان الشرقية والغربية يتصور العالم على أنه شر جذري ينطوي على عنصر أزلي

للحقيقة، يتوجه بالأولى إلى عقل الإنسان وقلبه، فيزيد من احتداد غلواء ذلك التشاؤم. ولهذا، فهو لا يضع في أسفل سلّمه الدين الذي يدعي اقتيادنا إلى علياء السماء، مثل الدين اليهودي وخلفه الشرعي الإسلام، بوصفهما الدينين المتفائلين بامتياز.

فيما المسيحية، التي كان فيلسوف الأوبانيشاد عدائيًا إزاءها، فهو رغم ذلك أبدى تعاطفًا كبيرًا مع العديد من عقائدها، وخاصة تلك التي تمثل في الجوهر ماهيتها: عقيدة الزهد، التي رأى فيها من وجهة نظر إيتيقية سامية، الحكمة الوحيدة والحقيقية لكل الوجود الإنساني. لأن دين الخطيئة الأصلية دين متشائم، يتجه إلى طبيعة الأشياء لا إلى ظاهرها. فالزهّاد والنساك المسيحيون ـ على سبيل المثال ـ أبطال نجحوا في بلوغ الفهم الأعمق لمعنى الحياة الإنسانية، كما أفلحوا في هتك الأستار التي تغشي الأشياء تحت مظاهر كاذبة.

وعلى مثال المسيحية فثمة في أصقاع أخرى من المعمور أديان أخرى رفعت كلية الحجاب عن المايا، أديان ولدت أبطالًا أقرب إلى الكمال والقداسة من أبطال المسيحية. أعني هنا كلًا من البراهمانية والبوذية، (2) اللتين تبدآن من السمسارا ارتقاء إلى النرفانا، أي من عالم الحس إلى عالم الوجود المجرد، المخلص من الإرادة ومن شوائب الهوى واللذة ومن الشقاء. فقد تمكن كهنة الدينين ذينك، من بين سائر الفانين، من هتك واختراق غرور الحياة الإنسانية في صميمه. ففي هذين الدينين، ما استقال العقل نهائيًا وما اغتيل بحرف المعنى، كما كانت حالته المحزونة في المسيحية، إذ أن كهنة بوذا ليسوا كأمثال كهنة المسيح، أي: مجرد كذبة يعظون بما يعلمون في سريرتهم أنه محض كذب وبهتان وزيف وباطل، ومجرد أفاكين دساسي مكايد، يتحرقون طمعًا تحت قناع الوعظ الأخلاقي، إلى تحقيق مآرب سياسية تهدف أولًا وأخيرًا إلى تشديد الخناق على الأرواح كما الأجساد.

إذا تركنا الأديان جانبًا، فالأمر الذي كان يثير حفيظة فيلسوفنا هو إشكالية التأليهية. فهو يكاد لا يميز بين التأليهية والإلحاد، وقد كان لا يأبه إن رمي بوصم الملحد، هذا الوصف الذي لا يعني شيئًا في قاموسه. وربما لهذا كان شوبنهاور لا يمل

من تكرار هذه العبارات: «لا فيلسوف حقيقي كان متدينًا». وعليه، فالشغف الذي كان يكرسه لدراسة مشكلة الأديان يبين أنه كان يأخذها مأخذ الجد.

«إن كان عليّ أن أتمثل في ذهني، بأني في حضرة كائن أحد أبتهل إليه مناجيًا: «يا بارئي إني لم أكُ شيئًا، وأنت من خلقني فصرت شيئًا.. وصرت أنا»، وإذا شفعت نجواي مسبحًا: «يا رب أحمدك وأقدسك على هذه النعمة». وإذا انتهيت بالقول: «إن كنت لا شيء، فالذنب ذنبي وحدي» ـ أعترف على إثر دراساتي الفلسفية، ومعرفتي بمذاهب ومعتقدات الهند، أن عقلي يقف عاجزًا عن تحمل مثل هذه الفكرة».

وناهيك عن ذلك، فشوبنهاور، على النقيض من سبينوزا، لا يعير كبير اعتبار لوحدة الوجود على حساب التأليهية بسبب تفاؤليته: «فلتنظر إلى هذا العالم قبليًا كإله، فهذا ما لم يخطر على بال بشر. كان ليكون إلهًا غير حكيم، ما وجد شيئًا ليتسلى به غير التحول إلى عالم كعالمنا!». فوحدة الوجود، ليس على حد قوله سوى «إلحاد ملطف»، كان على حق في مقابل التأليهية، من حيث أن الطبيعة تحمل قوتها في ذاتها.

***

إن قراءتك «**الحواشي والبواقي**» ستؤكد لك مرة أخرى ما سبق وقلناه عن شوبنهاور في موضع آخر، (3) وهو ذات ما قيل يومًا عن سقراط من أنه أنزل الفلسفة من سماء الحكماء الطبيعيين إلى أرض الإنسان، فهو على عكس فلاسفة آخرين، لم يكن تجريديًا خالصًا يبحث عن الجوهر المفقود في ضباب الميتافيزيقا، بل كان فيلسوفًا رأسه بين كتفيه وأفكاره ضاربة جذورها عميقًا في أرض الواقع المرئي. لقد كان فيلسوفًا عرك حياة هذا العالم، ويكتب كأديب بأسلوب بديع ورشيق، حتى في مقام ليس في مقدوره أن يخفي فيه روحه الفلسفية. وسواء اتفقنا أم اختلفنا معه، فشوبنهاور يجب أن يقرأ كأعظم الكُتاب، لأنه يترك في النفس انطباعًا أشبه بما يتركه فيها غوته أو شانفور أو هاينه أو بيرون أو نيتشه.

وبالفعل، فشوبنهاور يعرض موقفه من الدين بلغة شعرية ساحرة. ويبدو هذا السحر فاقعًا في محاورته عن الدين، التي يفتتح بها هذا المؤلف. وهو واحد من بين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فصول «الحواشي والبواقي»، الذي منذ ظهوره سنة 1851، تلقاه القرّاء بفضول وترحيب منقطعي النظير، وأثار لغطًا واسعًا فانقسمت حوله الآراء بين رأي أجزل له المدائح ورأي آخر كال له شنيع التقريع.

كانت المحاورة بين ديموفيلس وفيلاليثس وثيقة القربى بهيوم وفولتير، فالأول كانت أفكاره جادة، وتميزت بوضوحها وقوة حجتها، والثاني تميز بفكره الساخر وتهكمه اللاذع. فعلاوة على المحاورة تلك، يضم هذا الكتاب فصولًا أخرى تتناول الإيمان والمعرفة، والوحي، والمسيحية، والتأليهية، والعهد القديم والعهد الجديد، والطوائف والفرق، والعقلانية.

الفصل الأول

عن الدين

محاورة ديموفيلس(4): لا أخفيك سرًا يا صديقي العزيز، بأنني لا أستسيغ كيف أنك تبدي على رؤوس الأشهاد، من حين إلى آخر موهبتك الفلسفية بصب جام سخريتك ولاذع تهكمك من الدين. إذ أن إيمان كل فرد مقدس بالنسبة إليه، ومن ثم، فمن الواجب أن يكون مقدسًا بالنسبة إليك أيضًا.

فيلاليثس(5): **إني أرفض النتيجة التي انتهيت إليها** (Nego consequentiam)!(6) لأنني لا أرى من داع يحملني على أن أبدي توقيرًا واحترامًا [لجبال تناطح السماء] من الأكاذيب والأراجيف والأضاليل، لا لشيء، إلا بجريرة سذاجة الأنفس الغريرة. إن ما أجله حد التقديس هي الحقيقة أينما كانت وحيثما صادفتها، ولهذا السبب بالتحديد لا يسعني أبدًا أن أوفي ما يضادها (يعني الكذب) أي اعتبار أو مراعاة. فلن تبزغ على هذه الأرض شمس الحقيقة وأنت تكبل عقول الناس بهذه الطريقة.(7)

إن شعاري في الحياة هو ذا: «لتتأبد **الحقيقة، حتى لو باد العالم**» (Vigeat veritas, et pereat mundus) على مثال مبدأ رجل القانون: «**لتتحقق العدالة، وليذهب العالم إلى الجحيم**» (Fiat justitia, et pereat mundus). وليكن هذا شعار كل كلية وكل جامعة.

ديموفيلس: أخمن أن كلية الطب ستحمل شعارًا يقول: «**لنصنع حبوب الدواء وإن كان العالم سيفنى**» (Fiant pilulae, et pereat mundus.). لأنه سيكون من الميسور السير على هدي هذا الشعار.

فيلاليثس: فلتحفظنا السماء!.. لا بد أن يؤخذ كل شيء **بروية وأناة** (cum grano salis).

ديموفيلس: حسنا إذًا. ولعل هذا بالذات سبب رغبتي في أن تفهم الدين، وأن

تنظر إليه **بشيء من الروية والأناة** (cum grano salis)، وأن تتقبل فكرة أن تلبية حاجات الدهماء وجمهور الناس يجب أن تكون حسب ملكات فهمهم ومنسوب ذكائهم. إن الدين يمثل الوسيلة الوحيدة الحقيقة بأن تصدح وتبين للطغام والسوقة من عوام الناس، من ذوي الأنفس الجلفة غليظة الطبع والفهم الأخرق المنغمسين في شاق الأعمال وأحقرها والسائخين في دوامة الكد والكدح، معنى الحياة السامي والمتعالي، وجعله ملموسًا وفي متناول إدراكهم. لأن الجنس البشري، بصفة عامة، لا يهفو في العادة ولا يأبه في الأصل لشيء، سوى أن يرضي ويشبع احتياجاته ورغائبه الجسدية، وبعد ذاك يتفكر في لحظات اللهو والترفيه (Unterhaltung) والتسلية والهزل (Kurzweil).

يأتي مؤسسو الأديان والفلاسفة إلى العالم لانتشاله من وهدة السبات، وليرفعوا عنه غشاوة الغفلة (Betäubung) والذهول والخدر الذي يعمه فيه، وليدلوه إلى المعنى الأسمى والأجل للوجود، فالفلاسفة ندبوا للقلة أو القلة القليلة (für die Wenigen)، ومن أجل الأحرار لا العبيد. أما مؤسسو الأديان، فقد ندبوا من أجل السواد الأعظم من الناس (für die Vielen)، بل من أجل الإنسانية كافة. لأنه، وكما قال أفلاطون ذات حين: «**من المحال أن يكون جمهور العوام من الفلاسفة**» (φιλοσοφον πληθος αδυνατον ειναι).(8) وهذا ما عليك أن تضعه على تخوم قلبك فلا تنسه أبدًا.

إن الدين بمثابة ميتافيزيقا للشعب، والتي علينا حتمًا أن نتركها له، وأن نكِنّ لها الاحترام والتوقير (äußerlich) بما هي كذلك، ذلك أن التشنيع عليها والحط من قيمتها يعني سلب الدين من بين أيدي الشعب وانتزاعه من قبضته بالنهاية. فبما أنه ثمة شعر شعبي، ولأنه بين ثنايا الأمثال السائرة تثوي حكمة شعبية، فلا بد بالتبعة أن يكون ثمة أيضًا ميتافيزيقا شعبية. لأن في الإنسان حاجة متأصلة إلى خلع تفسير على الحياة (Auslegung des Lebens)، والذي ينبغي أن يتناسب وقدرتهم على الفهم.(9)

يتنكر ذلك التفسير في الأغلب من الأحيان بقناع مجازي ليعبر عن الحقيقة، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة العملية وفي الأمور ذات الصلة برغد العيش، أي كدليل موجه للفعل وكمسكن وعزاء وسلوة في المعاناة وفي الموت. وهو ربما بالفعالية والنجع بقدر ما هي الحقيقة ذاتها، إن كانت في قبضتنا. لا يُسيئنك ولا يأخذنك أي شعور بالإهانة بسبب صورته المبلبلة، الباروكية،(10) والمتناقضة والمنافية للعقل على نحو لا تخطؤه عين. فرجل بقدرك من الثقافة والعلم، لن يعزب عنه ما يجب من الطرق الالتفافية والملتوية لنزرع في نفوس الغوغاء خشنة الطبع بضع حقائق ثابتة.

إن الأديان، في جملتها، ما هي إلا خطاطات مختلفة بواسطتها يدرك الشعب ويتمثل الحقيقة، التي تبقى في ذاتها من أخفى الأسرار وأعصاها على أفهامهم (unfaßbare)، والتي تصير في أعينهم وثيقة العرى بتلك الخطاطات.(11) وعليه، لا تعذلني يا صاحبي، إن قلت لك إن السخرية من الأديان هي ـ في آن ـ علامة على محدودية العقل وعلى عسف في الحكم.

فيلاليثس: لكن أليس من محدودية العقل ومن الإجحاف أن نفرض أنه لا وجود لميتافيزيقا خلا هذه الميتافيزيقا المقدودة على مقاس حاجات وملكات فهم سَفلة الشعب وغوغائه؟.. وأن تمثل هذه المذاهب سِنام الأبحاث الإنسانية وسدرة منتهاها، والنور الهادي (Richtschnur) لكل فكر، على نحو يجعل ميتافيزيقا القلة القليلة، أو الأحرار الطلقاء كما دعوتهم، تنتهي إلى تأكيد، وإلى تكريس وبيان ميتافيزيقا الشعب تلك؟.. ومن ثم، فأن تبقى القوى والملكات العليا للعقل الإنساني بائرة ومتخلفة، وغير متطورة ومحكومًا عليها بالوأد في المهد، حتى لا يُحبط نشاطها أبدًا تلك الميتافيزيقا الشعبية؟.. وهل هذه الأمور تختلف في الأساس عن أزعومات الدين وادعاءاته؟.. أيليق أن يعظ بالتسامح والحلم والرحمة شخص هو التجسيد الحي للتعصب والقسوة والجفاء؟.

وأستدعي بهذا الصدد شهادة محاكم الهرطقة، ومحاكم التفتيش، والحروب الدينية، والحروب الصليبية، وكأس سقراط، (12) ومحرقة برونو وفانيني!(13) حتى إن باتت كل هذه الفظاعات تنتمي إلى الماضي، وغير سارية المفعول اليوم، فأية عقبة مهما كانت كأداء لتقف في وجه البحث الصادق عن الحقيقة، أنبل عمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تسعى وراءه الإنسانية الأكثر نبلًا، أكثر من هذه الميتافيزيقا التقليدية المدعومة من الدولة، وتقع تحت أحكارها، والتي تغرس مبادئها منذ ميعة الصبا بجدية وحزم لا نظير لهما، وبعمق أرسخ قدمًا، وبقوة في كل ذهن، اللهم إذا كان ذلك الذهن سريع التعافي بأعجوبة؟.. ومن ثم، فذلك العقل المعافى يغدو مختلًا وفاسدًا فسادًا لا برء بعده، أي: أن قدرته على التفكير المستقل والحكم بشكل نزيه وحيادي، على ما يشوبهما من وهن، تمسي إلى الأبد مفلولة وتلفة في علاقتها بأي شيء مت بصلة إلى تينك الملكتين.

ديموفيلس: في الواقع، لربما هذا يعني ـ فيما أفترض ـ أن الناس باتوا على قناعة راسخة لا يحيدون عنها ليقبلوا ما تعتنق أنت من قناعات.

فيلاليثس: أواه!.. لو كانت على الأقل قناعة مبنية على بصيرة ثاقبة! إذ ذاك يمكن أن نتأدى إليها بحجج العقل ومقارعتها بنفس أسلحتها. بيد أن الأديان ـ بلا ذرة حرج ـ لا تدعو إلى الاقتناع المبني على الحجج العقلية، وإنما تتجه إلى الإيمان توسلًا بالوحي. والحال أن القابلية للإيمان تكون أكبر في الطفولة، ولهذا السبب، فالهدف الذي ليس بعده هدف ينصب على السيطرة على هذه السن الحساسة. وبهذه الكيفية، تتجذر وتترسخ عقائد الإيمان على نحو أفعل من اللجوء إلى التهديد والوعيد وقصص المعجزات.

ومن ثم، فإن كررنا على مسامع الناس منذ ميعة الصبا وجهات نظر ومعتقدات أساسية، بإجلال مهيب ما ألفوا مثيله، وبسمت يطغى عليه إلحاف، ما رأوا مثله قط. وإذا نبذنا جانبًا وبصورة كلية أية إمكانة ليداخل امرؤ واحد منهم الشك وتنهشه الحيرة، بقولنا إن الشك هو السراط المستقيم إلى اللعنة الأبدية والخسران المبين، ومن ثم، فالانطباع سيكون عميقًا جدًا لدرجة أنه، كقاعدة عامة، أي في جميع الحالات تقريبًا، لن يكون بمقدور الفرد أن يرتاب أبدًا من تعاليم تلك المعتقدات مثلما لن يشكك في وجوده الخاص.

وبهذا الحسبان، فمن بين آلاف الأفراد لن تكاد تعثر إلا على فرد واحد يملك رباطة الجأش وثبوت الذهن ونفاذ البصيرة ليتساءل في سريرة نفسه بجدية وصدق: هل

كل هذا حقيقي؟.. ولهذا فوصف **العقول القوية** (forts esprits)،(14) وهو ينطبق على الذين يمكن أن يكونوا كذلك، هو وصف أنسب أكثر مما نخال. أما بالنسبة للبقية الآخرين، فليس ثمة شيء يضاهي في عبثيته ومفارقته للعقل، وتشنيعه وإثارته للتقزز (Empörendes)، من اعتقاد ثابت لا يحور، وإيمان ثابت لا يتزعزع، والذي إن انغرس في أنفسهم بالطريقة التي وصفنا آنفًا، فلن يتجذر في وجدانهم كأرسخ وأقوى اعتقاد.

فعلى سبيل المثال، لو أن قتل مهرطق أو كافر زنديق كان شيئًا ضروريًا من أجل الخلاص المستقبلي لروحه، فلكان الكل قد جعل من ذلك شغله الشاغل في حياته وغاية الغايات من وجوده ولوجد ـ في مواجهة الموت ـ عزاء ومتراسًا يحول دون تذكره واستعادته أجل أعماله ونجاحاته. ولهذا كان على كل إسباني، في دابر الأزمان، أن ينظر إلى **الإعدام حرقًا** (auto de fè)(15) كأشد الأعمال ورعًا وتقوى وأكثرها مرضاة لله.

ولدينا في الهند نظير ذلك في الطائفة الدينية **للتاغ** (Thugs)، (16) التي أفلح الإنجليز في كسر شوكتها بعد سلسلة من عمليات الإعدام لعدد من أشياعها، وقد اعترف أفرادها بأنهم كانوا يعبدون الإلهة كالي ويقدسونها، وذلك باغتيال أصحابهم وقتل رفقائهم في السفر غيلة حتى يستولوا على ممتلكاتهم. وقالوا أنهم تحت سطوة غشاوة الوهم السميكة كانوا يحسبون جديًا أنهم بهذه الفعلة النكراء يحسنون صنعًا ويأتون فعلًا محمودًا وقمينًا بأن يستجلب لهم الخلاص الأبدي.(17)

وهكذا، فإن غلواء المعتقدات الدينية المغروسة منذ سن صغيرة بلغت مبلغًا من العنف حد أنها تخنق كل ضمير حي (Gewissen)، وبالتبعية تقتل في الإنسان أي شعور بالشفقة وأي نزعة إنسانية (Menschlichkeit). لكن إذا ما أردت أن ترى بأم عينك وعن كثب مفعول هذا الغرس المبكر للاعتقاد [في السرائر]، فما عليك سوى أن تتأمل حال الإنجليز. فلتنظر إلى هذه الأمة التي باركتها الطبيعة وفضلتها على جميع الأمم الأخرى، فأنعمت عليها [بسديد] الفهم (Verstand)، و[ثقابة] العقل، وقوة الحكم وحدة الطبع أكثر مما أوتي غيرها من العالمين.

انظر إليها كيف انحطت إلى ذيل الركب، وكيف غدت فعليًا حقيقة بالازدراء بسبب الخرافات الغبية لكنيستها، التي تبدو من بين كل قدراتها وكفاءاتها الأخرى، كوهم مطبق (fixer Wahn)، وكهوس (Monomanie) مستبد. ولذلك، فما عليهم سوى أن يمتنوا إلى كون التربية هي بأيدي رجال الإكليروس الذين يحرصون أيما حرص على أن يغرسوا في أذهانهم، وفي مقتبل الحياة، كل أركان الإيمان ومبادئ الاعتقاد (Glaubensartikel)، لدرجة تؤدي إلى أن يحدث فيهم ضربًا من الشلل الدماغي الجزئي، والذي يتجلى بعد ذلك طوال الحياة ويفصح عن نفسه أفصح تعبير في هذا التعصب الأعمى (Bigotterie) الغبي الذي يحط بشأو حتى أكثر الناس ذكاء، وأكثر العقول توقدًا، فيتركوننا حيارى لا نعرف ماذا نقدم وماذا نؤخر بشأنهم.

لكن، إذا نظرنا إلى مدى أهمية تلقين الإيمان الجوهرية في سن الطفولة في مثل هذه الروائع (Meisterstücken)، فإن النشاط التبشيري (Missionswesen) لن يبدو بعدئذ إلا كقمة التطفل (Zudringlichkeit) البشري، والغطرسة والعتو والصفاقة والوقاحة (Arroganz und Impertinenz)، ولكن أيضًا بوصفه عبثيًا سخيفًا إن لم ينحصر في دائرة ضيقة من الشعوب التي ما تلبث سادرة في طور الطفولة(18) مثل الهوتنتوت،(19) والكافير (Kaffir)، (20) وسكان جزر بحر الجنوب وأشباههم، حيث حالفه النجاح الفعلي بين ظهرانيهم وفق ما كان يصبو إليه.

وفي الهند، من جهة أخرى، كان البراهمانيون يقابلون خطابات المبشرين بابتسامة تعطف متعجرف أو بهز الأكتاف، وبصفة عامة فإن جهود المبشرين لتحويل هذا الشعب عن معتقداته قد باءت بالفشل الذريع دائمًا حتى في أحسن الظروف. يشير تقرير محكم ظهر على صفحات المجلد 21 من المجلة الأسيوية لعام 1826، إلى أنه بعد سنوات عديدة من النشاط التبشيري في كل الهند (التي بلغ فيها تعداد الممتلكات الإنجليزية وحدها ما ناهز حينذاك 150 مليون نسمة وفقًا لجريدة التايمز، عدد أبريل 1852).(21)

لم يحصّ من الذين تحولوا عن المعتقد أكثر من 300 قيد حياتهم، ونعترف

في نفس الوقت أن المتحولين إلى المسيحية قد تميزوا بلا أخلاقيتهم المفرطة [وفجورهم المسرف]. فليس ثمة غير 300 من الأنفس الخسيسة المرتشية التي باعت نفسها من بين ملايين أخرى [ما صبئت عن دينها]. لا أرى في أي صقع من الهند أن حال المسيحية قد تحسنت منذ ذلك الحين، (22) على الرغم من أن المبشرين يتطلعون الآن في المدارس المكرسة بخاصة للتعليم الإنكليزي المدني [اللاديني]، (23) وفي انتهاك فاضح للاتفاقيات، أن يؤثروا على عقول الأطفال بطريقتهم الخاصة، ليسربوا المسيحية إليها خلسة.

لكن الهنود، في المقابل، يبقون على استعداد بقدر كبير من الحذر ويقفون لهذه الفعلة بالمرصاد. وكما قلت ذلك سلفًا، فالطفولة هي المرحلة الفضلى لزرع بذور الاعتقاد، وليس سن الرشد، لا سيما إن كان ثمة اعتقاد سبق وضرب بجذوره في هذه المرحلة الحياتية. لكن غالبًا ما يكون **الاعتقاد** المكتسب أو الناشئ الذي يتظاهر به المتحولون دينيًا من الراشدين محض قناع يخفي مصلحة شخصية.

ولأننا نحس، على وجه التحديد، أن الأمر كان على هذه الحالة في أرجح الظن، ففي أي مكان ينظر الناس بعين التحقير والاستهجان إلى أي رجل بذل دينه في سن النضج. وفعلهم هذا يدلل على أنهم لا ينظرون إلى الدين كمسألة اقتناع عقلاني متبصر، وإنما بوصفه اعتقادًا لقن في سن مبكرة، وقبل أي سبر وتمحيص. ولكن كونهم على حق في هذا، فذلك ما يمكننا تبينه ليس فقط من الحشود المؤمنة إيمانًا أعمى، ولكن أيضًا من خلال كهنوت كل دين، الذي بما هو كذلك كان قد أعمل النظر في مصادره وأسسه، وعقائده وتناقضاته وخلافاته، ومع ذلك فالكل يعض بالنواجذ على دين أرض آبائه وأجداده بتفانٍ غير مشوب وحماسة وتعصب.

ولهذا، فمن النادر جدًا أن ترى في العالم رجل إكليروس وقد بذل دينه أو تحوّل من ملة أو طائفة دينية إلى أخرى. فرجال الإكليروس الكاثوليك، على سبيل المثال، مقتنعون قناعة لا تحور من حقيقة تعاليم (Sätze) كنيستهم. كما أن رجال الإكليروس البروتستانت يؤمنون هم الآخرون بحقيقة مبادئ كنيستهم، وكل حزب على ما لديه ينافح بنفس الحمية والغيرة عن شرائع وتعاليم (Satzungen)

طائفته. بيد أن هذه القناعة ليست إلا نتاج البلد الذي ولد فيه كل منهما. فحقيقة العقيدة الكاثوليكية بديهية تمامًا لرجال الدين من جنوب ألمانيا، ولكن حقيقة العقيدة البروتستانتية هي أبده عند الألمان الشماليين. والآن، إن كانت هذه القناعات تقف على أسس موضوعية صلبة، فعلى هذه الأسس أن تكون مناخية، ومثل النباتات، فعلى بعضها أن ينمو ويزهر هنا، وعلى البعض الآخر أن ينمو ويزهر هناك. لكن الناس في كل صقع من أصقاع العالم يعتنقون دائمًا ـ وفي كل مكان ـ الإيمان، ويثقون بحسن نية وطيب خاطر في قناعات أمثالهم من المقتنعين المحليين (Lokal - Ueberzeugten).

ديموفيلس: لا ضير في ذلك، ما دام أنه في الجوهر ليس ثمة فرق. فالبروتستانتية، على سبيل المثال، هي أكثر ملاءمة للشمال، والكاثوليكية أفضل للجنوب.

فيلاليثس: كذلك يبدو الأمر. لكنني اتخذت وجهة نظر أجل قدرًا وأبعد مرتقى، ووضعت نصب عيني (im Auge) موضوعًا أخطر شأنًا، وبخاصة التقدم الذي تحرزه معرفة الحقيقة عند الجنس البشري. ولهذا، فإنه لأمر مروع أن تنطبع منذ الصبا في وجدان كل إنسان ـ أينما ولد ـ بعض المزاعم والادعاءات (Behauptungen) التي لا سبيل له إطلاقًا على أن يضعها على محك الشك خوفًا على خلاصه الأبدي. فمن حيث هي مزاعم وادعاءات تتعلق بأساس كل معارفنا الأخرى، فهي تحدد بالتبعة إلى آخر رمق من الحياة آراءنا إزاءها، والتي، إن كانت خاطئة، ستشوهها وتفسدها إلى الأبد، وإلى ذلك، فبما أن تداعياتها تتغلغل داخل نسق معارفنا بأكمله، فهي تحرف بالكامل (durch und durch) مجمل المعرفة البشرية.

وهذا ما يشهد عليه كل أدب، وأدب العصور الوسطى على وجه التخصيص، ولكن أيضًا ـ وبدرجة أعلى ـ أدب القرنين السادس عشر والسابع عشر. ألم نرَ على مر العصور والحقب كيف أن عقول نوابغ من الصف الأول غدت كأنها مشلولة بسبب مثل تلك الأفكار والتصورات الأولية الزائفة؟.. وبخاصة كيف أن كل إمعان نظر (Einsicht) في جوهر الطبيعة الحقيقي وكيفية عملها كما لو أنه حجب

عنهم (ihnen wie mit einem Brette vernagelt.).(24) لأنه خلال الحقبة المسيحية بأكملها كانت التأليهية تنيخ بكلكلها مثل كابوس مزعج على كل الجهود الفكرية، ولا سيما الفلسفية منها، ويثبط أو يشل حركة (verkümmert) أيما تقدم.

إن الله والشيطان (Teufel) والملائكة والجن (Dämonen) تخفي الطبيعة بكليتها عن علماء تلك الأزمنة، فلا تحقيق ولا بحث قد وصل إلى منتهاه، ولا بلغنا جوهر الأشياء في أي ميدان من الميادين. وبدلًا من ذلك، فكل ما يتعالى على أبده وأظهر علاقة سببية (Kausalnexus) سرعان ما يشيع إلى مثواه الأخير على يد أولئك الأشخاص، قائلين باختصار من فورهم كما وعبّر عن ذلك بومبوناتيوس(25) في سياق مماثل: **«بالتأكيد ليس لدى الفلاسفة ما يقدموه بخصوص هذا الشأن، ولهذا فمن الضروري الالتجاء إلى الله والملائكة والشياطين»**(26)(certe philosophi nihil verisimile habent ad haec, quare necesse est, ad Deum, ad angelos et daemones recurrere) (de incantat c. 7).

بالطبع، يمكننا أن نرمي هذا الرجل بظِنّة السخرية والتهكم، لأن ختره وخبثه (Tücke) ليس بغريب عنّا إلى ذلك، ولكنه يعبر عن الطريقة العامة في التفكير السائدة إبان عصره. ومن ناحية أخرى، إن كان المرء يمتلك بحق هذه المرونة (Elastizität) الذهنية النادرة التي وحدها تكفي لتمكينه من كسر الأغلال، فسيكون ذلك مطية لحرق كتاباته، بل حتى مؤلفها سيكون طعمة للنيران في أغلب الظن. وهذا عين ما وقع لبرونو وفانيني. فإلى أي مدى يشل هذا الترويض (Zurichtung) (27) الميتافيزيقي المبكر الأدمغة **العادية**، يمكن الوقوف عليه بشكل سافر ومن جانبه السخيف حينما ينصرف امرؤ من أمثال أولئك إلى انتقاد عقيدة ديانة أخرى.

وبصفة عامة، فسيجده المرء يبذل منتهى وكده ببساطة ليبين بدقة وعناية أن المعتقدات الأخرى لا تتوافق مع معتقداته، ساعيًا هكذا بدأب وجهد إلى أن يفسر أنها لا تقول نفس الشيء الذي تقوله المعتقدات الأخرى، وإنما هي إلى ذلك لا تريد بالتأكيد أن تقول الشيء ذاته الذي تقوله معتقداته. وبهذا يخال نفسه، بكل بساطة، أنه قد أثبت زيف تلك العقيدة الأخرى الغريبة عنه. إذ لا تطرق ذهنه أبدًا خاطرة أن

يتساءل أي الاعتقادين الاثنين قد يكون صحيحًا، فتعاليم الإيمان الخاصة بهما هي بالنسبة لهما مبادئ **قبلية** (a priori) غير قابلة للتكذيب. وقد عرض القس موريسون (Morrison) مثالًا مسليًا من هذا النمط في المجلد العشرين من **المجلة الآسيوية** (Asiatic Journal)، حيث انتقد فيه الدين وفلسفة الصينيين ـ يا لبهجتنا!

ديموفيلس: هذه كانت وجهة نظرك العليا. لكني أؤكد لك أن ثمة وجهة نظر أخرى أعلى بكثير. إن المبدأ القائل: **«عش أولًا، ثم تفلسف بعدئذ»** (Primum vivere, deinde philosophari) له دلالة جامعة مانعة أكثر مما يبدو عليه للوهلة الأولى. يتعلق الأمر ـ وقبل كل شيء ـ بترويض الطباع (Gemüther) الفظة والخسيسة للحشود لحمايتها من المظالم الشديدة، والوحشية والقسوة، والأعمال العنيفة والمشينة. فلو أننا انتظرنا أن تتعرف الحشود على الحقيقة وتستوعبها، فإننا سنصل لا محالة متأخرين جدًا. وحتى إن افترضنا أنها بلغت الحقيقة بالفعل، فهذه الحقيقة لن تكون في متناول فهمها.

وعلى أي حال، فما يلائم أولئك الأجلاف، هو لبوس مجازي (allegorische Einkleidung) للحقيقة أو أمثولة أو أسطورة. وعلى ما قال كانط، فينبغي أن يكون ثمة بند عام (öffentliche Standarte) للحق والفضيلة، وعلى هذا البند أن يرفرف عاليًا [في كبد السماء] وفي جميع الأزمنة والعصور. وفي النهاية، فلا يهم أي الشخصيات الشعارية التي تزينه، طالما أنها تشير إلى المقصود. وبالنسبة للبشرية جمعاء، فمثل هذه اللبوس المجازي والرمزي للحقيقة هو في كل زمان ومكان، بديل مناسب عن الحقيقة نفسها، التي يتعذر دومًا على سواد الناس الوصول إليها، والفلسفة بشكل عام، التي لن يستطيعوا ـ أبدًا ـ فهمها. هذا دون الحديث عن واقع أن هذه الأخيرة تغير شكله كل يوم ولم تحظَ بعد بأي شكل من أشكال الاعتراف الكوني (allgemeinen Anerkennung). وإذًا.. فالغايات العملية ـ عزيزي فيلاليثس ـ أولى من الغايات النظرية، وذلك على جميع الصعد.

فيلاليثس: هذا يصدق إلى حد كافٍ على النصيحة القديمة للعجوز الفيتاغوري طيماوس اللوكريسي: **«لنلجم الأنفس بخطب مخادعة إن كانت الخطابات الصادقة لا**

τος ψυχας απειργομες ψευδεσι λογοις, ει κα μη) «تفيدهم بشيء. (de anim. mundi p. 104 d. Steph) **(αγηται αλαθεσι**. [عن روح العالم، ص 104/ ستيفانوس].(28) وأنا أكاد أتهمك بأنك تريد أن تقنعني على طريقة هذه الأيام:

«لكن، يا صاحبي.. سيأتي حين من الدهر، نتلذذ فيه بأريحية بما هو طيب».(29)

وتوصيتكم تنشد إقناعي بضرورة أن نأخذ حذرنا في أوانه حتى لا يأتي طوفان الرعاع المتبرم والهائج ليزعجنا على مائدة العشاء. لكن وجهة النظر هذه في كليتها خاطئة بقدر ما هي أثيرة وموضع إشادة في أيامنا، ولهذا عليّ أن أسارع إلى الاحتجاج ضدها. إنه من **الخطأ** أن الدولة، والعدالة (Recht)، والقانون (Gesetz) لا يمكن إدامتها وتوطيد دعائمها من دون سند ومساعدة الدين وتعاليمه الإيمانية، وأن جهازي القضاء والشرطة سيكونان في حاجة إلى الدين، من أجل فرض النظام وإنفاذ القانون (gesetzliche Ordnung).

وهذا **خطأ** كما قلت، ولو كررناه مئة مرة. لأن القدماء، وبخاصة الإغريق، قدموا لنا **مثالًا مضادًا** (instantia in contrarium) واقعيًا لافتًا النظر (faktische und schlagende). إذ لم يكن لديهم على الإطلاق ما نفهمه نحن الآن **بالدين**، ولم يكن لديهم لا صحفًا مطهرة، ولا عقيدة يتعين غرسها في مرحلة مبكرة في عقول الشباب، والتي على الجميع أن يذعن لها، مثلما أن خدام الدين لا يكرزون مواعظ عن الأخلاق إلا لمامًا، ولا الكهنة ينشغلون بأي شكل من الأشكال بالأخلاقية (Moralität) أو بصفة عامة بما يمكن فعله وما لا يمكن فعله من قبل الناس. لا على الإطلاق كان واجب الكهنة محصورًا في احتفالات المعبد (Tempelceremonien)، والصلوات، والتراتيل، والقرابين والأضاحي (Opfer)، والمواكب، وطقوس التطهير وطرد الأرواح الشريرة، إلخ. وأي شيء آخر ليس أبدًا من هدف التهذيب والارتقاء (Besserung) الأخلاقي للأفراد. وبدلًا من ذلك، كان كل ما يدعى الدين يقوم ببساطة ـ وخاصة في المدن والحواضر ـ على أن **عددًا من آلهة العوائل النبيلة** (Deorum majorum gentium) كرس لها هنا وهناك **معابد** حيث تمارس

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

العبادات والشعائر في سبيل الدولة، ما يمثل في المقام الأول شأنًا من شؤون الشرطة.

لا أحد كان ـ ما خلا الموظفين المعنيين ـ مرغمًا تحت أي قيد من القيود على أن يكون حاضرًا في تلك العبادات أو حتى أن يؤمن بها. وفي كل العصور القديمة لم يحدث أن وجد أثر لإكراه على الإيمان بأي عقيدة كانت. وحده الإنسان الذي أنكر وجود الآلهة على رؤوس الأشهاد أو ذلك الذي أزرى بها أو استخف بها وحط من قدرها من كان مهددًا بالعقاب، لأنه بفعلته أهان الدولة التي هي في خدمتها. لكن فيما عدا ذلك، كان كل واحد حرًا طليقًا في أن يفكر فيها كيفما شاء. فإن كان امرؤ يرغب في أن يستفرد بحظوة تلك الآلهة وحده (sich privatim)، من خلال الصلوات والقرابين والتضحيات، فقد كان حرًا في أن يفعل ذلك، مع تحمل التكاليف والمخاطر، وإن لم يفعل، فلا حق لأحد ليلومه، وعلى الأخص الدولة.

وقد كان في دار كل روماني أرواحه وآلهته الحارسة (Laren und Penaten)، والتي لم تكن بالأساس (im Grunde) سوى تصاوير مقدسة ومبجلة لأسلافه. Apuleius, de Deo Socratis, c. 15، vol. II, p. 237 ed [ition].)) Bip[ont].)).(30) فعن خلود الروح والحياة بعد الموت، لم يكن لدى القدامى على الإطلاق أي مفهوم أو فكرة (Begriffe) ثابتة قاطعة، وواضحة، ولا أقله فكرة دوغمائية، بل كان لديهم في المقابل أفكار وتصورات (Vorstellungen) غير متكلفة (lockere)، متقلبة (schwankende)، غير محددة وإشكالية، كل على شاكلته، كانت أفكارهم عن الآلهة شتى، وفردية وفضفاضة.

وقصارى القول، لم يكن لدى القدماء ـ قط ـ **دين** بالمعنى الذي نفهمه من الكلمة. لكن ألهذا السبب سادت الفوضى وانعدام القانون بينهم؟.. وعلى العكس من ذلك، أليس القانون والنظام المدني عملهم، والذي ما لبث إلى اليوم يمثل أساس أعمالنا؟.. ألم تكن الممتلكات في حصن حصين ومؤمنة من أيدي العابثين؟.. على الرغم من أنها كانت تتألف في جزء كبير منها من العبيد.. وأن هذا الوضع لم يستتب أمره إلا ما ينيف عن ألف عام مما تعدون؟.

ومن ثم، فأنا لا أستطيع أن أدرك المقاصد العملية للدين وأعترف بضرورته بالمعنى الذي أشرت إليه أنت. هذا المعنى الذي بات يحظى بشعبية كونية اليوم، أي بوصفه الأساس الذي لا غناء عنه لأي نظام قانوني، والذي بات لزامًا عليّ أن أعترض عليه. لأنه من وجهة النظر هذه، سيبدو الكفاح الحق والمقدس في سبيل النور والحقيقة دونكيخوتيًا على أقل تقدير،(31) وفي حال إحساسه بحقه ستواتيه الجرأة والجسارة ليدين سلطة الإيمان بما هي قوة غاصبة استولت على عرش الحقيقة وحافظت عليه من خلال الخداع المستمر، حتى أن ذلك النضال سيبدو إجراميًا.

ديموفيلس: لكن الدين لا يضاد الحقيقة، لأن الدين نفسه ينهض بوظيفة تلقينها. إن دائرة نشاطه ما كانت قاعة درس ضيقة وإنما العالم الرحب بأسره والإنسانية كافة، كما على الدين أن يوافق حاجات وقدرات فهم جمهور واسع ومختلط، ولهذا عليه ألا يترك الحقيقة تظهر عارية أو ـ إذا استخدمنا تشبيهًا طبيًا ـ فلا ينبغي لها أن تتناول نقية خالصة، ولكن بعد اللجوء إلى حامل أسطوري كنوع من السواغ (Menstruums).(32)

ويمكنك أيضًا ـ بهذا الصدد ـ أن تقارن الحقيقة ببعض المواد الكيميائية الغازية من حيث طبيعتها، التي علينا أن نربطها، إما لاستخدامات كيميائية أو من أجل تخزينها أو نقلها، بقاعدة صلدة ومحسوسة، وإلا تبخرت في الهواء، فغاز الكلور ـ على سبيل المثال ـ لا يستخدم في كل هذه الأغراض إلا في شكل الكلوريدات.(33) لكن في حال الحقيقة الخالصة والمجردة، الخالية من أي أثر أسطوري، والتي تبقى إلى الأبد عصية على الجميع، بمن فيهم الفلاسفة، فعندئذ ستمسي الحقيقة شبيهة بالفلور، (34) الذي لا يمكن حتى عرضه (darstellbar) في ذاته ولذاته، وإنما بالامتزاج مع مواد أخرى وحسب.

أو لنقل ـ إذا تحدثنا بلغة أقل علمية ـ إن الحقيقة، التي لا يمكن التعبير عنها إلا أسطوريًا ومجازيًا تشبه الماء الذي لا يمكن نقله دون وعاء (Gefäß). أما الفلاسفة الذين يلحفون في امتلاكها، خالصة لا شائبة فيها، هم كمثل رجل يريد كسر الوعاء ليستأثر بالماء لوحده. ولربما جرى الأمر على ذاك النحو في الواقع. وعلى أي حال،

فما الدين سوى الحقيقة وقد تسربلت بثوب استعاري وأسطوري، ما يجعل الحقيقة في متناول الإنسانية كافة وطوع فهمها(35) على نطاق واسع. فكما أنها لا يمكنها ـ قطعًا ـ أن تتحملها في حالتها الخالصة وغير المشوبة بمثل أن الإنسان لا يمكنه العيش بالأوكسجين الخالص وحده، إذ أنه بحاجة إلى إضافة أربعة أخماس من الآزوت أو النيتروجين.

وإذا تحدثا دون استعارات، فالمعنى العميق والهدف الأسمى للحياة لا يمكن أن تهتك أستارهما ويبديا إلى عموم الناس في صورة **رمزية** فحسب، لأنهم لا قبل لهم على فهمهما فهمًا حقيقيًا. والفلسفة، في المقابل، عليها أن تكون مثل الأسرار الإلوزيسية (Eleusinischen Mysterien)، (36) للقلة [من خاصة الخاصة]، وللمختارين [من النخبة].

فيلاليثس: أفهم جيدًا، فالأمر وما فيه أن كل هذا يؤول في النهاية إلى إلباس الحقيقة لباس الكذب. لكنها بفعلها ذلك تدخل في تحالف وبيل العقابيل. فأي سلاح خطير يوضع في أيدي أولئك الذين خول لهم الحق ليتخرصوا الكذب(37) وُصلةً إلى الحقيقة! وإن كان الأمر كذلك، فإنني أخشى أن الفدح والوبال الذي يتسبب فيه الكذب أو اللاحقيقة سيكون أنكى وأدهى من أي خير قد تأتي به الحقيقة.

أجل، إن سمح للقصة الرمزية من أن تفصح عن نفسها علنًا بما هي كذلك، فسيكون كل شيء على خير ما يرام، لكن هذا سيحرمها من أدنى احترام، وبالتالي من أية فعالية. لذلك، عليها أن تثبت صدقها وتؤكد أنها صحيحة **بالمعنى الحرفي للكلمة** (sensu proprio) فيما هي ـ في أحسن الأحوال ـ صحيحة **بالمعنى المجازي** (sensu allegorico) فقط. وهنا مكمن داء الضرائر الذي لا شفاء منه أبدًا، والشر الدائم الذي يجعل الدين في نزاع دائم مع السعي النبيل والمحايد وراء الحقيقة الخالصة، والذي لن تخمد سورته إلى دهر الداهرين.

ديموفيلس: الأمر ليس كذلك. لقد حرصنا أن نشمل بعنايتنا هذا أيضًا. فحتى إن كان الدين لا يقر بطبيعته المجازية بشكل صريح، فإنه مع ذلك يلمع إليها بشكل كافٍ.

فيلاليثس: وأين ذلك؟.

ديموفيلس: في أسراره المكنونة. وفي الحقيقة، فـ«**السر المكنون**» (Mysterium) ليس سوى مصطلح تقني (terminus technicus) لاهوتي للقصة الرمزية الدينية. كذلك، فجميع الأديان لها أسرارها. في واقع الأمر إن السر ـ على ما يبدو ـ عبارة عن عقيدة لا معقولة ومنافية للحس السليم، والتي مع ذلك تأوي حقيقة سامية مستغلقة في ذاتها بإطلاق عن الفهم المشترك للحشود الفظة، الذين يقبلونه الآن تحت هذا الستار، بطيب خاطر وحسن نية، دون أن يبهتوا ويتحيروا بلامعقوليته سافرة الوضوح التي لا تخطؤها أعينهم.

وبهذه الطريقة فإنهم يشاركون، بقدر ما استطاعوا، في لب المسألة ذاتها (des Kerns der Sache). ولمزيد من البيان والتوضيح، بوسعي أن أضيف أن التوسل بالغموض والتعمية قد اتخذا مسلكًا وجرت محاولة تجريبهما حتى في الفلسفة، فهاك على سبيل المثال باسكال، الذي كان في آن تقويًا ورياضاتيًا وفيلسوفًا، حين قال بهذه الخاصية الثلاثية: «الله مركز في كل مكان، وليس هامشًا في أي مكان».

وكذلك مالبرانش، فقد قال هو أيضًا عن حق: «**الحرية سر الأسرار**» (la liberté est un mystère)(38). ويمكن للمرء أن يجمح بخياله بعيدًا ويؤكد أن كل قوام الأديان هو ـ في واقع الأمر ـ سر لا تهتك أستاره. فأن يلقن الشعب على فظاظته وجلافته الحقيقة **بمعناها الحرفي** (sensu proprio)، فهذا ولا شك رابع المستحيلات، فلن ينالهم سوى انعكاسها الأسطوري والمجازي الرمزي، وهو وحده كافٍ لينور بصائرهم.

إن عيون الغوغاء والرعاع (profanen Vulgus) الأميين لتعمى وتذهل عن الحقيقة العارية، فلا يمكن أن تتجلى لأولئك الأوباش إلا وهي متوارية خلف حجاب سميك. لهذا السبب، فليس من العدل ولا من المعقول بإطلاق أن نتوقع من دين أن يكون صحيحًا بالمعنى الحرفي للكلمة. ومن ثم، ولنقل هذا عرضًا فحسب، فالعقلانيون وما فوق الطبيعيين في أيامنا هذه، هم أبعد الناس عن المنطق والحس السليم ما دام أن هؤلاء وأولئك ينطلقون من فرضية أن الدين يجب أن يكون

صحيحًا بالمعنى الحرفي للكلمة. فإذا كان الأول يذهبون إلى أن الدين ليس صحيحًا بحرف المعنى، فالثواني يجزمون بعناد أنه كذلك، أو بالأحرى، فالأول يفصلون ويعدلون القصص الرمزي ليبدو كما لو أنه صحيح بحرف المعنى، لكنه سيغدو غدًا بلادة تافهة، في حين أن الثواني يتشوفون إلى الصدح بأن ذلك القصص صحيح بالمعنى الحرفي من دون أي تسوية أو تعديل إضافي، وما عليهم أن يدركوه هو أن ذلك يستحيل قطعًا أن يكون قابلًا للتنفيذ وعمليًا من دون محاكمات الهراطقة والمحارق. ومن ناحية أخرى، إن الأسطورة والقصة الرمزية هما في الواقع المكونان الواقعيان (eigentliche Element) للدين. لكن تحت وطأة هذا الشرط الذي لا محيد عنه بسبب حصر الملكات الفكرية ومحدودية القدرات الذهنية لجمهور الدهماء، فهو يلبي الحاجات الميتافيزيقية المتأصلة في الإنسان، والتي تحل محل الحقيقة الفلسفية المحضة، التي يصعب بما لا يقاس بلوغها وربما استحال ذلك إلى أبد الآبدين.

فيلاليثس: أوه نعم، وتقريبًا على نفس النحو الذي تنوب فيه ساق خشبية مناب ساق طبيعية؛ إنها تسد مسدها، وبالكاد تنهض بعبء نفس الوظيفة، وتتظاهر لبرهة من الزمن كما لو أنها غدت ساقًا طبيعية، وأنها أمست وقتئذ أفضل حالًا، فقد أصبحت الآن مصنوعة بمهارة وإبداع، وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى، فطبيعي أن الفرق الوحيد يتمثل في أن ساقًا طبيعية كانت قائمة هنا قبل الساق الخشبية، في حين أن الدين كان قد أحرز قصب السبق على الفلسفة في كل أوب وصوب.

ديموفيلس: كل ما قلت قد يكون صحيحًا، ولكن، ففي عين امرؤ فقد رجلًا طبيعية، سيكون للساق الخشبية قيمة ما بعدها قيمة. فلا يغربن عن بالك أن الحاجة الميتافيزيقية للإنسان لا بد وأن تشبع، لأن أفق أفكاره يجب أن يسد، وألا يظل بلا حدود. بيد أن الإنسان تعوزه في الغالب الأعم ملكة الحكم والتمييز، والمُكنة على أن يزن بالقسطاس حجج العقل ليميز صحيحها عن كاذبها.

وعلاوة على ذلك، فالشغل الذي فرضته عليه الطبيعة وضوائقها، لا يفسح له وقتًا كيما يجري تحقيقاته واستقصاءاته، ولا ليتلقن الثقافة والتعليم (Bildung)

اللذين تقتضيهما مثل تلك التحقيقات والاستقصاءات. لذلك، ففي مثل حالته لا مجال للحديث عن قناعة مؤسسة على حجج العقل، بل هو رهن الإيمان والسلطة. فحتى لو حلت فلسفة حقيقية تمامًا محل الدين، فسيقبلها على الأقل تسعة أعشار البشر على أساس السلطة فحسب، ومن ثم، ستكون مسألة إيمان مرة أخرى، ففكرة أفلاطون التي تقول «**من المستحيل على السواد الأعظم من الناس أن يتفلسف**» (*φιλοσοφον πληθος αδυνατον ειναι*) ما تلبث فكرة صامدة. إلا أن الزمان والظروف وحدهما يصنعان السلطة، ولذلك لا يمكننا أن ننيط بها من ليس له من أساس غير حجج العقل دون سواها. وبالتالي، علينا أن نتركها لمن نالها عبر مدار التاريخ (Weltlauf)، حتى لو كانت مجرد حقيقة ممثلة مجازيًا.

هذه الحقيقة، المدعومة الآن من السلطة، تتوجه قبل أي شيء إلى الاستعداد (Anlage) الميتافيزيقي الفعلي لبني الإنسان، بمعنى الحاجة النظرية الناشئة من لغز وجودنا الحتمي (Räthsel unsers Daseyns)، ومن الوعي بأن، خلف تمظهرات هذا العالم المادي لا بد وأن يوجد على نحو من الأنحاء شيء ما ميتافيزيقي ثابت لا يتغير يقوم كأساس يفسر هذا التغيير المستمر، ويتوجه هذا الضرب من الحقيقة كذلك إلى الإرادة، وإلى الخوف والأمل الذي يغذيه الفانون الذين يرزحون تحت نير الضائقة والشقاء الأبدي، فتخلق لهم بحق آلهة وشياطين وأرواحًا شريرة يمكنهم استحضارها، واستعطافها وكسب رضاها والفوز بحظوتها، لكنها تلجأ في المقام الأخير إلى وعيها الأخلاقي الذي لا سبيل إلى إنكاره في الإنسان، الذي يسبغ عليها تأكيدًا ودعمًا من الخارج.

وفي غياب هذا الدعم فإن هذا الوعي الأخلاقي الذي يقاوم عديد الإغراءات لن يستطيع أن يصون نفسه. وهذا الجانب من الدين بالتحديد هو الذي يمثل معينًا لا ينضب من صنوف العزاء والطمأنينة الذي لا يخذل الإنسان حتى في لحظة الموت، بل يكشف في المقابل عن فعاليته الكاملة. وعليه، فإن الدين إذًا يشبه ذلك الذي يمسك يد أعمى ليدله، وهو نفسه في حاجة ماسة إلى دليل، والذي لا يهمه شيء سوى أن يصل إلى وجهته، وليس أن يرى كل شيء على طول الطريق.(39)

فيلاليثس: لا مرية أن هذا هو جانب الدين المشرق. فإن كان الدين دجلًا (fraus)، فإنه والحق يقال دجل ورع (pia fraus)، (40) وهذا ما لا يمكننا غمطه ولا إنكاره. ولكن بهذه الطريقة يصبح الكهنة في عيننا هجينًا غريبًا (sonderbaren Mittelding) من المحتالين ومعلمي الأخلاق، لأنه ليس مخولًا لهم بالفعل. في تقديري، تعليم الحقيقة في ذاتها، حتى لو كانوا على سابق علم بها، وهذه ليست الحال أبدًا. وبناء عليه، ففي أحسن الأحوال يمكن لفلسفة حقيقية أن توجد، ولكن دينًا حقيقيًا فهذا ما لا يمكن أن يكون على وجه الإطلاق، أقصد الحقيقي بالمعنى الحرفي والفعلي للكلمة، وليس فحسب باللمع والتلميح (Blume) أو القصة الرمزية، كما وصفت ذلك آنفًا، بمعنى: يمكن فيه أن يكون كل دين صحيحًا، ولكن بدرجات متفاوتة.

وبطبيعة الحال فهو يتوافق تمامًا مع المزيج المعقد من السراء والضراء، والخير والشر، والصدق والكذب، والطيبة والخبث، والكرم والخسة، التي ينضح بها العالم في جميع بقاعه، فهذا يتوافق تمامًا مع واقع أن الحقيقة الأهم والأسمى والأقدس لا يمكن أن تظهر إلا وهي مشوبة بالكذب، والتي تستمد قوتها من تلك الكذبة، التي لها وقع أكبر وطأة على الناس، والتي يجب أن تقدم إليهم من لدنها على أنها وحي (Offenbarung).

قد يسع المرء كذلك أن ينظر إلى هذه الواقعة بصفتها مونوغرام العالم الأخلاقي. وفي نفس الوقت، لا نريد أن نقطع دابر الأمل في أن ترقى البشرية في يوم من الأيام إلى درجة من النضج والثقافة حيث تستطيع، من جهة، إنتاج فلسفة حقيقية، ومن جهة أخرى قادرة على تبنيها. ولأن **«البساطة هي عنوان الحقيقة»** (simplex sigillum veri) هي واقع الحال، فإنه على الحقيقة العارية أن تكون في غاية البساطة وفي متناول الفهم كيما نستطيع أن نلقنها جميع الناس في شكلها الحقيقي، من دون مزجها بالأساطير والحكايات الخرافية (ركام الكذب ذاك)، بمعنى، من غير إلباسها قناع **الدين**.(41)

ديموفيلس: أنت لا تملك أدنى فكرة، ولا فهمًا كافيًا عن الملكة العقلية البئيسة

والمثيرة للرثاء لدى سواد الناس الأعظم.

فيلاليثس: لا أعرب سوى عن أمل يراودني، ولكنني لا أستطيع أن أقطع دابره. وفي هذه الحالة، فالحقيقة، في شكلها البسيط(42) والمفهوم، ستطيح لا محالة بالدين من سدة عرشه الذي احتله ردحًا طويلًا من الدهر بالإنابة، وأبقته مفتوحًا عليها بهذه الطريقة. وعلى ذلك، فالدين سينهض بدعوته ووظيفته ويستأنف مجراه الطبيعي، وعندئذ ففي وسعه أن يرخي العقال للجنس البشري الذي وجهه حتى أغلبيته الساحقة (Mündigkeit)، ويتبدد من جانبه في دعة وسلام، فهذا سيكون بمثابة قتل رحيم للدين واستئصال أخير لشأفته.

ولكن، ما دام الدين قائمًا، فله وجهان: وجه للحقيقة، ووجه للخداع والكذب. فحسب العين التي ننظر بها إليه، فإننا إما أن نحبه وإما أن نكون من أشرس معاديه. ومن ثم، فمن أوجب واجبات المرء أن يعتبر الدين كشر لا بد منه، ناجمًا عن غفلة وغباء السواد الأعظم من الناس وحصرهم الفكري (Geistesschwäche) المثير للرثاء، إذ هم عاجزون حتى عن استيعاب وإدراك الحقيقة، وبالتالي فهم بحاجة ماسة وعجلى إلى بديل عنها.

ديموفيلس: حقًا، على المرء أن يذهب إلى الظن بأنكم ـ يا معشر الفلاسفة ـ تحوزون الحقيقة مسبقًا وهي جاهزة ناجزة تمامًا وأن لب المسألة وقف على إدراكها لا غير.

فيلاليثس: إن كنا لا نملك الحقيقة، فمرد ذلك بالأساس إلى شديد الوطأة الذي مارسه الدين على الفلسفة في كل العصور والأمصار. ولا يقتصر الأمر على الصدح بالحقيقة وتبليغها فحسب، اللذان عزم الناس على جعلهما مستحيلين، بل حتى تأملها وكشف النقاب عنها، بوضع عقول الطفولة الأولى في أيدي الكهنة، ليعيثوا فيها فسادًا، فهم من حفر بحزم وعمق الأخدود الذي على الأفكار الأساسية أن تتحرك فيه مستقبلًا، وأن هذه الأفكار ستبقى، في معظمها، راسخة ثابتة ومحددة لمدى الحياة.

أشعر من حين لآخر بالصدمة تنهشني، ولا سيما أنني أصدر عن دراساتي الشرقية، وأنا أحمل بين يدي كتابات نوابغ عقول القرنين: السادس عشر والسابع عشر

وأساطينهم البارزين، وأرى كيف أنه في كل مكان ارتدته إلا وجدت العقول مشلولة ومطوقة من كل حدب وصوب بالأفكار اليهودية الأساسية. في وضعية كهذه، أروني.. من في نفسه القدرة على التفكير في الفلسفة الحقيقية؟!.

ديموفيلس: وبالمناسبة، فحتى إن وجدت هذه الفلسفة الحقيقية، فالدين لن يتوارى من هذا العالم، كما قد يزين لك خيالك. لأنه، لا سبيل لأن توجد ميتافيزيقا واحدة وللجميع. فالاختلاف الطبيعي بين الملكات والقدرات العقلية، إضافة إلى عامل تعهدها بالتربية والتثقيف، لن يسمح أبدًا بحصول ذلك. فالغالبية العظمى من الكائنات البشرية ينبغي عليها أن تتحمل بالضرورة عبء العمل اليدوي الشاق الذي لا غنى عنه لتلبية احتياجات النوع التي لا تنتهي. فليس أن هذا لن يترك لهم فسحة من الوقت فقط ليثقفوا أنفسهم، وليتعلموا، وليفكروا، ولكن أيضًا، فبسبب العداء المحتد بين التهيج والحساسية، فإن العمل البدني المفروض الشاق والمضني يبلد الذهن، ويثقل الفهم، ويجعله فجًا أخرق، وأهوج جهولًا وبالتبعة عاجزًا عن استيعاب أي شيء آخر، عدا العلاقات البسيطة للغاية والعينية الملموسة.

والآن، فتسعة أعشار الجنس البشري على الأقل يندرجون تحت هذه الفئة. وهذا السبب الأساس الذي يفسر لما يحتاج الناس إلى ميتافيزيقا؟.. أي إلى تفسير للعالم ولوجودنا. لأن هذه الميتافيزيقا تنتمي إلى الحاجات الأكثر طبيعية للإنسان، بل إن فيهم حاجة ماسة في الواقع إلى ميتافيزيقا شعبية (Volksmetaphysik)، التي كيما تكون كذلك، عليها أن تجمع بين مزايا وصفات شتى ونادرة، ومن بينها قابلية فهم كبيرة مشفوعة بقليل من اللبس والغموض، بل حتى المنعة أو امتناع قابلية الاختراق (Undurchdringlichkeit) في الأمكنة المناسبة، ومن ثم، وجب وصل أخلاقية قويمة ومناسبة مع عقائدها، ولكن قبل كل شيء يجب أن تقدم عزاء وسلوى لا تنضب حيال العذاب والموت.

ويستتبع ذلك أن الدين لا يمكن أن يكون صحيحًا وحقيقيًا إلا **بالمعنى المجازي** (sensu allegorico)، لا **الحرفي** (sensu proprio). وفضلًا عن ذلك، عليه أن يكون مستندًا على سلطة قهرية تفرضه بالقوة وبالغصب بسبب من عمرها الطويل،

والاعتراف العام الذي تحظى به، وبالمخطوطات والوثائق الأصلية، جنبًا إلى جنب مع نبرتها أو طريقة عرضها وأدائها، وجميع الصفات التي يصعب بما لا حد له التوليف بينها إلا من قبل أفراد كثيرين، لا فردًا وتزًا، والذي حتى إن راودته الفكرة، فلن يكون جاهزًا ومستعدًا على الإسهام في تقويض مدماك الدين وهيكله، بل سيدرك أن الدين كنز الشعب الأقدس.

إن من يريد أن يصدر حكمًا على الدين، عليه أن يحط في رأسه دائمًا أبدًا طبيعة (Beschaffenheit) وتركيبة الحشود الغفيرة التي يتوجه إليها، ويقف على كامل دونيتها أو انحطاطها الأخلاقي والفكري. إنه أمر لا يصدق أن نرى إلى أي مدى قد يستطيل الدين، وبأي إصرار وعناد تستمر شرارة صغيرة من الحقيقة في الانقداح ولو من خلال غلالة سميكة من الحكايات الخرافية المستهجنة والاحتفالات الصاخبة (grottesker)، تلزق بكل ما يلمسها، فلا تزول مثل عبير المسك (Moschus).

ولبيان ذلك، لنضع في اعتبارنا من ناحية الحكمة الهندية العميقة، التي يضمها الأوبانيشاد (Upanishads) بين تضاعيفه، ثم لنلقِ نظرة على العبادة المسعورة للأصنام في الهند اليوم، كما تتجلى في الحج والمواكب والاحتفالات، أو أيضًا في هذه الحماقات المجنونة والشاذة لسانياسين ذلك الزمان.(43) بيد أنه لا مسلك لنا إلى إنكار أنه تحت كل هذا الهيجان المجنون وهذه الشناعات (Fratzen) المثيرة للسخرية ثمة شيء ما محتجب عنا وهو ينسجم مع الحكمة العميقة التي ذكرت فيما تقدم، أو يصلح كانعكاس لها.

في كنف هذا التناقض ثمة أمامنا قطبان تتوزع عليهما الإنسانية: حكمة النزر اليسير من الأفراد وبهيمية الجمهور الواسع من الدهماء، وإن كان كلاهما يتوافقان وينسجمان في دائرة الأخلاق. آه لمن لم يخطر بخلده في هذا السياق المثل المذكور في الكورال (Kural)(44): **«إن عامة الناس يشبهون الناس، لكنني لم أرَ قط ما يشبههم»** (البيت 1071).*(45) والمرء رفيع الثقافة والتكوين بوسعه في كل الأحوال أن يفسر الدين لنفسه **بشيء من التحفظ والشك** (cum grano salis)، والعلاّمة العارف، والمفكر الحكيم يمكنه أن يستبدله سرًا وفي صمت بفلسفة ما.

لكن، حتى هنا، ففلسفة **واحدة** ليست تصلح للجميع، وإنما في المقابل، كل منها يجتذب وفقًا لقوانين التقارب الاختياري (Wahlverwandschaft)، ذلك الجمهور الذي يكون مستوى تعليمه وملكاته العقلية متناسبين معها.

ومن هنا، ثمة في كل العصور والأزمنة حضور لميتافيزيقا مدرسية دنيا من أجل العوام المتعلمين، وميتافيزيقا أرقى، وقف على النخبة حصرًا. فعلى سبيل المثال، ألم ينل من سمعة التعليم الرفيع لكانط ويحط من قدره بأن جعل في مستوى المدرسة وقوض من قبل أشخاص من أمثال [جاكوب فريدريش] فريس، و[فيلهيلم تروغوت] كروغ، و[جاكوب] سالات، وآخرين من أشباههم؟.

وصفوة القول، فهنا وكما في أي مكان آخر، تصدق الحكمة المأثورة عن غوته: **«لا يمكن لمقاس واحد أن يناسب الجميع».**(46) إن الإيمان الخالص بالوحي والميتافيزيقا المحضة هما على طرفي نقيض، وبخصوص الدرجات أو الأطوار الوسيطة، فثمة أيضًا تعديلات متبادلة للطرفين بتوليفات وتدرجات لا عد لها ولا حصر. لذلك، فهذا ما يستدعيه الاختلاف اللامتناهي الذي فرضته الطبيعة والتربية على البشرية.

إن الأديان تغطي وتحكم العالم، والجماهير الحاشدة تسلس قيادها لها. وفي نفس الوقت، التعاقب الهادئ للفلاسفة يتواصل من جهته ببطء، متوسمًا افتضاض السر الأكبر للقلة القليلة ممن يتمتعون بالموهبة والتربية والثقافة. ففي كل قرن من القرون إلا ويظهر في المتوسط فيلسوف واحد، الذي ما إن يظفر بالاعتراف به كفيلسوف حق، حتى ينال الترحيب به دائمًا بابتهاج وغبطة وطرب وحتى يرهف إليه السمع بانتباه.(47)

فيلاليثس: تذكرني وجهة النظر هذه بالكثير من ألغاز القدماء، التي سبق وذكرت بعضها أنت، والتي يبدو أن الهدف الذي تنطوي عليه، كان يكمن في تصويب وتقويم هذه الآفة أو البلوى الناشئة من تفاوت الملكات العقلية والتربية والتعليم. كان قوام مخططهم اصطفاء عدد قليل من الأفراد من الحشود الغفيرة، من الذين يتعذر عليهم بشكل قطعي ومحتوم بلوغ الحقيقة غير المقنعة، وأن نكشفها له بقدر محدد، ثم

ننتقي من بين هؤلاء مرة ثانية قلة قليلة أخرى، التي سيكشف لأفرادها المزيد، طالما أنهم قادرون على فهم المزيد، وهكذا دواليك إلى أن نبلغ مرتبة المطلعين على الأسرار (epopts).(48) وبناء عليه، ستكون ثمة أسرار صغرى، وأسرار كبيرة، وأسرار كبرى (μικρα, και μειζονα, και μεγιστα μυστηρια).

والأمر وما فيه أن فهمًا دقيقًا للامساواة في الملكات الفكرية بين الكائنات البشرية يمثل أساس هذه المسألة ولبها.

ديموفيلس: إن التربية والتعليم، بمعنى من المعاني، في مدارسنا الابتدائية، والمتوسطة والعليا، يمثلان مستويات أو مدارج شتى لهتك الستر عن خبيء الأسرار.

فيلاليثس: ولكن هذا بصورة تقريبية فحسب، وهذا أيضًا ما دامت مواضيع المعارف العليا مخطوطة حصرًا باللغة اللاتينية. ولكن منذ أن أقلعنا عن فعل ذلك، أمست كل الأسرار منتهكة ومدنسة.

ديموفيلس: ومهما يكن الأمر، أود تذكيرك، بشأن موضوع الدين، أنه يتعين عليك أن تقاربه أقل من الناحية النظرية وأكثر من الناحية العملية. وحتى لو كانت الميتافيزيقا المجسدة عدوة له، فإن الأخلاق المجسدة ستكون صديقة له في المقابل. لربما كان التمظهر الميتافيزيقي خاطئًا في جميع الأديان، لكن ما تفتأ الأخلاق صحيحة في جميعها، ويمكن تخمين هذا من واقعة أنه على مستوى النقطة الأولى أنها كلها على نزاع دائم بينها، ولكنها متوافقة في المسألة الثانية.

فيلاليثس: وهذا ما يثبت القاعدة المنطقية التي مفادها: أن المقدمات الخاطئة قد تفضي إلى نتيجة صادقة.

ديموفيلس: الآن لنلازم مكاننا عند النتيجة، وليوقر في ذهنك دائمًا أن للدين وجهين. فحتى وإن نظرنا إليه من زاوية نظرية محضة، أي من الناحية الفكرية، فلا يمكنه أن يقوى على الصمود فعليًا. ومن وجهة النظر الأخلاقية في المقابل سيبدو كالوسيلة الوحيدة لتوجيه وإرشاد، وترويض وإلجام ومواساة هذا الجنس (Rasse) من الحيوانات الذي وهب ملكة العقل، والذي لا تجُبّ قرابته (Verwandtschaft)

إلى القرد نفس قرابته إلى النمر.

وفي نفس الآن، وبصفة عامة، فهي تشبع بما يكفي حاجته الميتافيزيقية المأفونة. لا يبدو لي أنك تملك فكرة واضحة عن البون الواسع، ولا الشقة الوسيعة بين عقلك المتعلم والمتنور والمتمرس على التفكير، والوعي البليد، الأخرق، والمعتم والكسول لدواب الحمل أولاء من البشرية التي غاية مناها أن تحافظ على وجودها وبقائها مرة واحدة وإلى الأبد، والتي لا يمكن أن تحتشد في أي شخص آخر، وقوة عضلاتها متشنجة ومنهكة بصورة خاصة إلى حد أن القوة العصبية، التي تشكل ملكة الذكاء تتداعى إلى أسفل سافلين.

من الواجب أن يكون لدى أناس من هذه الطينة ـ بالتأكيد ـ شيء مادي وملموس يتمسكون به، على طريق حياتهم الزلق والشائك، وبعض الحكايات الجميلة لتضع في متناولهم الأشياء التي لا يمكن لفهمهم الأبلد أن يفقهها ويتدبرها إلا في شكل تصاوير وأمثال دينية.

فيلاليتس: أما تعتقد أن الصدق والشرف والفضيلة محض كذب وخداع وتدليس، وأنه علينا أن نوشيها بزخرف الحكايات الخرافية؟.

ديموفيلس: أنا بعيد كل البعد عن مثل هذه الأفكار!. لكن سواد الناس في مسيس الحاجة إلى شيء يمكنه أن يعلق عليه مشاعره الأخلاقية وما يأتي من أفعال. فالمرء ليس في طاقته أن يشد انتباههم من خلال تفسيرات معمقة وتمييزات دقيقة.(49) فبدل وصف حقيقة الأديان **بالمعنى المجازي** (sensu allegorico)، في ميسورنا أن نطلق عليها ـ سيرًا على منوال الثيولوجيا الأخلاقية لكانط ـ فروضًا ذات غايات عملية، أو خطاطات تمهيدية، أو قوانين وضوابط على طريقة الفرضيات الفيزيائية الخاصة بتيارات الكهرباء لتفسير المغناطيسية، أو فرضيات الذرات لتفسير النسب في المركبات الكيميائية، (50) إلخ.

إننا نحترس من ترسيخها باعتبارها صحيحة موضوعيا، لكننا نستعملها على نحو نحدث به اتصالًا بين الظواهر، ما دام أنها فيما يخص التجريب والنتيجة، تنتهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقريبًا إلى نفس الشيء كما تفعل الحقيقة ذاتها. إنها تمثل نجومًا هادية توجه السلوك وتوطن في النفوس سكينة وطمأنينة ذاتيتين أثناء التفكير والتأمل.(51) إذا كنت تنظر إلى الدين بهذه العين، واعتبرت أن أغراضه عملية بالأساس وأن أغراضه النظرية ثانوية فحسب، فإنه سيظهر حالتئذ جديرًا بأجل الاحترام بالنسبة لك.

فيلاليثس: إن احترامًا كهذا يجب أن يقوم في النهاية على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. لكن لا أجد في نفسي أي نزوع إلى أي حل وسط أو تسوية مبنية على هكذا أساس. فقبل أي شيء، قد يكون الدين وسيلة ممتازة لتدجين وترويض الجنس المتخلف الغبي الخبيث من ذوي القدمين، لكن في أعين أصدقاء الحقيقة، فكل **خداع وغش (fraus)**، مهما كانت شدة **ورعه (pia)**، يظل مستهجنًا ومنكرًا.

لا شبهة في أن الكذب والاحتيال وسيلتان شاذتان غريبتان لغرس الفضيلة وترسيخها في النفوس. إن شعار الشرف الذي أديت يمينه المغلظة هو الحقيقة: سأظل مخلصًا له أينما وليت وجهي، وسأذود ما حييت عن النور والحقيقة، غير مهتم آبه بالعواقب. إذا رأيت دينًا من الأديان في صفوف العدو، فلسوف...

ديموفيلس: لكنك لن تجده هنالك!.. فالدين ليس دجلًا (Betrug)، إنه حقيقة، بل إنه الأهم من بين الحقائق جميعها. لكن، كما أسلفت القول آنفًا، بسبب أن عقائده هي من طبيعة سامية، فالحشود العظيمة لا يمكنها استيعابه مباشرة. ولأنني، أقول: إن نوره قد يعمي العين العامية، فهو يبدو محجوبًا خلف ستار المجاز والرمز ويلقن ما هو صحيح وحقيقي، ليس في ذاته بحق، وإنما وفقًا لمعناه السامي الذي ينطوي عليه، ومفهومًا بهذا المعنى، فالدين هو عين الحقيقة.

فيلاليثس: لا مانع من قبول هذا.. إن كان الدين مهيأ له أن يعلن نفسه صحيحًا بصورة مجازية فحسب. ولكنه يتظاهر مدعيًا أنه صحيح على نحو قطعي الدلالة، وبالمعنى الحق للكلمة. فهنا مربط الدجل والتدليس، وها هنا بالتحديد يتعين على صديق الحقيقة أن يقف منه موقف العداء.

ديموفيلس: ولكن ذلك، في حقيقة الأمر، **شرط لا بد منه (sine qua non)**. إن كان الدين يقبل الاعتراف بأن المعنى الصحيح الوحيد لتعاليمه وعقائده هو معناها

المجازي الرمزي، فمن شأن هذا أن يكسر شوكته ويحرمه من أي فاعلية، وهذه الصرامة ستقطع دابر تأثيره النجيع الذي لا يقدر بثمن على الأخلاق والألفة والمودة (Gemüthliche)(52) في الإنسان. وهكذا، فبدلًا من الإصرار على هذه المسألة بعناد متحذلق، كان أولى به أن يركز عنايته على جليل إنجازاته في دائرة الممارسات العملية، وفي مضمار الأخلاق والائتلاف والتواد (Gemüthlichen) كدليل مرشد للسلوك والفعل والتصرف، كسند وعزاء للإنسانية التي تعاني الأمرين في الحياة كما في الموت.

وعلى ذلك، أستكون حريصًا فعلًا على أن توقظ شك الناس بمماحكاتك النظرية؟.. وتنتهي من ثم إلى أن تنتزع من بين أيديهم منهلًا لا ينضب من العزاء والأمن والطمأنينة؟.. والذي هم في أمس الحاجة إليه في الواقع، بالنظر إلى مصيرها القاسي الأليم، أكثر من حالنا نحن، لهذا السبب وحده، فعلى الدين ببساطة أن يبقى في منأى عن أي مساس أو انتهاك.

فيلاليثس: لربما، **بهذه** الحجة، أمكننا أن نطرد من المعترك لوثر حينما تصدى لتجارة صكوك الغفران التي لا مبرر لها. وقبل أي شيء، فكم هو عدد الأشخاص، الذين جلبت لهم صكوك الغفران عزاء لا يعوض أو طمأنينة كلية؟.. كيما يسلموا الروح، بابتهاج وثقة عمياء بأن بين يديه وهم في نزعهم الأخير ما يكفي من الصكوك، مقتنعين مطلق الاقتناع بأنهم يمتلكون مفاتيح جميع السماوات التسع. (53) فيم يمكن أن تنفع بواعث العزاء والسكينة والطمأنينة وعلى كاهلها يسلط دومًا سيف ديموقليس، [كنذير] إحباط وخذلان؟!.. إن الحقيقة ـ والحقيقة وحدها ـ يا صديقي، تصمد بقوة، وتلبث ثابتة الجأش وراسخة القدم، لا تنقض ميثاق العهد، فعزاؤها وحده مكين، إنها البلورة القاسية التي يستحيل أن يطالها التدمير.

ديموفيلس: أجل.. هذا أكيد، إذا كنتم جميعًا تضعون الحقيقة في جيوبكم لنبتهج ونقرّ بها عينًا كلما عنّ لكم ذلك. لكن ليس لديكم سوى منظومات ميتافيزيقية، لا شيء فيها يقيني البتة ولا طائل يرتجى منها ما عدا صداع الرأس الذي تتسبب فيه. فقبل أن نسلب شخصًا شيئًا ما، علينا أن نحوز شيئًا أفضل منه لنمنحه إياه ككفارة.

فيلاليثس: أعليّ أن أسمع نفس الشيء مرارًا وتكرارًا؟!.. إن تخليص شخص ما من الخطيئة لا يعني أن نأخذ منه شيئًا في المقابل، بل أن نهبه شيئًا ما، لأن الاعتراف (Erkenntniß) بأن شيئًا ما كان خاطئًا هو توكيد لحقيقة. بيد أن لا زلة بلا عاقبة، وأيما زلة أو خطأ إلا وتفدح ـ عاجلًا أم آجلًا ـ ذلك الذي يكتمها في نفسه.

كذلك، لا يجب أن نخدع أحدًا، ومن الأحسن بدلًا من ذلك أن نقر ونعترف بأننا نجهل ما لا نعرفه، بأن نترك لكل واحد الحرية بأن يشكل معتقداته الخاصة بنفسه. فلربما أخذت منعطفًا غير سيء، خاصة إذا علمنا أن بعضها ينسخ البعض ويصحح بعضها البعض الآخر بالتبادل، وعلى أي حال، فتعدد الآراء ووجهات النظر سوف يؤسس للتسامح. أما أولئك الذين وهبوا المعارف والمواهب الفكرية فيمكنهم أن يتوجهوا إلى دراسة الفلاسفة، أو ربما كان حريًا بهم أن يستأنفوا تاريخ الفلسفة بأنفسهم.

ديموفيلس: قد ينتهي كل هذا إلى مشهد مثير للسخرية والرثاء!.. أمة كاملة من الميتافيزيقيين الطبيعانيين، والمتنازعين، ولربما **احتمل** (eventualiter) أن يكونوا من المتشاجرين المختصمين!.

فيلاليثس: الآن، الآن.. فقليل من الضرب هنا وهناك هو نكهة الحياة، أو على الأقل أهون الشرّين إذا ما قورنت بجبروت الوعاظ واستبداد الكهنة (Pfaffenherrschaft)، وسلب ونهب العلمانيين(54) (Laienplünderung)، واضطهاد المهرطقين (Ketzerverfolgungen)، ومحاكم التفتيش (Inquisitionsgerichten)، والحروب الصليبية (Kreuzzügen)، والحروب الدينية (Religionskriegen)، إلى مجازر القديس بارتولومي (Bartholomäusnächten) وهلم جرًا من الفظائع. كانت تلك عواقب ميتافيزيقا الشعبية المفروضة على الناس بالإكراه، ولذا سأظل متشبثًا بفكرتي التي مفادها: أنه لا يمكنك أن تقطف عناقيد العنب من عوسج شائك، ولا أن تنال الخلاص من الكذب والخداع والتضليل.

ديموفيلس: كم مرة يجب أن أكرر على مسامعك أن الدين براء من الأراجيف

والأضاليل، وإنما هو عين الحقيقة، لكنها تسربلت بلبوس ودثار أسطوري مجازي؟.. أما فيما يخص ما تقصده بأن على كل امرئ أن يكون هو نفسه المؤسس الفعلي لدينه الخاص، فما زال يتعين عليّ أن أخبرك ـ فضلًا عن ذلك ـ أن مثل هذه النزعة الخصوصية تتعارض كلية مع الطبيعة البشرية وستنسف جراء ذلك سدى النظام الاجتماعي.

إن الإنسان **حيوان ميتافيزيقي** (animal metaphysicum)، أي أنه بعبارة أخرى، مسكون بحاجة ميتافيزيقية شديدة المراس، تجعله يرى إلى الحياة أولًا وأخيرًا من حيث دلالتها الميتافيزيقية وأن يرى كل شيء مستنبطًا منها. ومن ثم، ورغم ما يبدو عليه الأمر من غرابة، بسبب من لا يقينية جميع المعتقدات، فالتوافق وانعقاد الاجماع بين الرؤى الميتافيزيقية الأساسية هي بالنسبة له واسطة العقد وجماع الأمر كله، إلى حد يحول دون أن تتوثق سدى جماعة بشرية (Gemeinschaft) حقيقية وقائمة الذات إلا بين قوم يتشاطرون نفس الذهنيات (Gleichgesinnten).

وكنتيجة لذلك.. ستتماهى وتتشابه الشعوب وتختلف أكثر تبعًا لما تعتنق من الأديان وليس تبعًا للحكومات أو حتى اختلاف الألسن. وبالتبعة، فصرح المجتمع، وبنيان الدولة لا يكون قائمًا على أرض صلدة تمامًا إلا حين يكون مؤسسًا على نسق ميتافيزيقي معترف به كونيًا. ولا مماراة أن مثل هذا النسق لا يمكن أن يكون إلا ميتافيزيقا شعبية، أي: دينًا. لكنه يندلق ويذوب (schmilzt) بعدئذ بين تضاعيف دستور الدولة وفي كل التعبيرات الجماعية من حياة الشعب، كما يفصح عن نفسه في الأعمال الاحتفالية (feierlichen Akten) في الحياة الخاصة.

فهكذا كانت حالة الهند القديمة، والفرس، والمصريين، واليهود، وحتى الإغريق والرومان، وهي ذات الحالة أيضًا بين الشعوب البراهمانية والبوذية، وتلك التي تعتنق العقيدة المحمدية.(55) ولا يخفى على أحد أن في الصين ثمة ثلاثة معتقدات إيمانية، بما فيها العقيدة الأوسع فشوًا وانتشارًا، أعني: البوذية. وهي العقيدة التي لم تنل حظًا أوفر من عناية الدولة لتوطينها في النفوس. ويقول مثل

شائع وفادح الوقع تلوكه جميع الألسن كل يوم في بلاد الصين: **«ما المذاهب الثلاثة سوى مذهب واحد»**، بمعنى: أن المذاهب تتفق حول التفاصيل الكبرى والرئيسة. كان الامبراطور نفسه يتبع المذاهب الثلاثة كلها، كما يعي وحدتها.(56) وفي الأخير، فأوروبا هي الاتحاد (Staatenbund) **المسيحي** للدول.

إن المسيحية هي أساس كل عضو من أعضائها والآصرة المشتركة التي تشد سدى الجميع. ولهذا.. فتركيا، ورغم أنها تقع في تراب أوروبا، فهي لا تنتمي فعليًا إليها. وبناء عليه، فحكام أوروبا وزعماؤها هم كذلك **(بنعمة الله ومنه)**، والبابا هو الحاكم بـ اسم الله (Statthalter Gottes)، الذي وبسبب أن مكانته وسلطته هي الأعلى، يرغب في أن يُنظرَ إلى جميع العروش على أنها مجرد إقطاعيات فوض مقاليد حكمها بنفسه.(57) وبالمثل، فرؤساء الأساقفة وحتى الأساقفة أنفسهم يحوزون سلطة زمانية، وربما لا زالوا إلى اليوم في إنجلترا يحظون بحق الولوج وحق التصويت في مجلس اللوردات. والحكام البروتستانت هم ـ بصفتهم تلك ـ رؤساء كنيستهم.

وقبل بضع سنوات فحسب، كانت في إنكلترا، فتاة يافعة تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا(58) على رأس كنيسة. فمن خلال المروق عن سلطة البابا، سيقوض الإصلاح الديني مدماك البناء السياسي الأوروبي، ولكنه سيقلقل بخاصة أساس الوحدة الحقيقية لألمانيا بنسف أركان جماعة الإيمان، التي كان لا بد أن يعاد تشكيلها بعد حين من الدهر على أساس وشائج محض سياسية ومصطنعة بعدما دالت وانهارت بالفعل.

ولذلك، فها أنت ترى كيف أن الإيمان ووحدته وثيقا الصلة جوهريًا بالنظام الاجتماعي وبوجود كل دولة. إن الإيمان في كل مكان يشد عضد القوانين ويسند التشريعات، أي الحجر الأساس للبناء الاجتماعي، الذي ما كان ليبقى ويستمر في الوجود إن لم يضف الدين الوجاهة والنفوذ على سلطة الحكومة والسمعة الطيبة وبعد الصيت إلى الحاكم.

فيلاليثس: نعم هذا صحيح، فالأمراء والحكام يأخذون الرب (Herrgott) على أنه

التابع روبريشت (Knecht Ruprecht)، (59) الذي يلوذون به ليرغموا الأطفال الكبار على الإخلاد للنوم حينما لا تنفع أي حيلة أخرى، وهذا سر تمسكهم به كل هذا التمسك. حسنًا إذًا.. الآن، أود لو أسدي النصح لكل أمير اعتلى سدة الحكم أن يقرأ الإصحاح الخامس عشر من السفر الأول لصموئيل(60) بجدية وانتباه بالغين مرتين من كل سنة في يوم محدد بدقة، ومن ثم سيوطن في ذهنه إلى أبد الآبدين ما يعني أن يكون أساس العرش على المذبح (Altar).(61)

وعلاوة على ذلك، فمنذ أن صارت **الحجة الأخيرة للاهوتيين (ultima ratio theologorum)**، أي المحرقة، لا تجدي فتيلًا، باتت وسائلها في الحكم فاقدة الجدوى وعديمة الفعالية. لأن الأديان ـ وأنت أعلم الناس بهذا ـ مثل حشرات الحبحاب، (62) فـ سنا نورها لا يشعشع إلا في حالك الظلمات.

إن مستوى ما من الجهل العام هو شرط وجود الأديان اللازب، والمقوم الوحيد الذي يبقيها على قيد الحياة. ومن ناحية أخرى، فحالما يبسط علم الفلك، والعلوم الطبيعية، والجيولوجيا، والتاريخ، والجغرافيا، والإنثروبولوجيا، نوره على البسيطة، وتقول الفلسفة هي الأخرى كلمتها، فكل إيمان مبني على المعجزات والوحي منذور إلى زوال محتوم، لتنوب الفلسفة منابه عندئذ.

في أوروبا، حيث بزغ فجر المعرفة والعلم في الهزيع الأخير من القرن الخامس عشر مع وفود أهل العلم الإغريق الجدد. لتشرق شمسها أعلى فأعلى إبان القرنيين السادس عشر والسابع عشر، الخصبين والولادين. وستبدد هذه الشمس سديم ظلمات العصور الوسطى. وعلى ذات المنوال، أخذت الكنيسة والإيمان في الانحسار بالتدريج، وهذا ما يفسر لماذا استطاع فلاسفة القرن الثامن عشر الإنجليز والفرنسيين أن ينتفضوا بلا تهيب في وجهها، إلى أن ظهر كانط أخيرًا في عهد فريدريش العظيم،(63) الذي سيسحب دعم الفلسفة السابق للاعتقاد الديني، محررًا بذلك **الخادمة من اللاهوت (ancilla theologiae)** الذي تصدى للمسألة بدقة ورصانة ألمانيتين. الأمر الذي جعلها لا تبدو بمظهر مبتذل وتافه وإنما متدثرة بلباس الهيبة والوقار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنتيجة لكل ذلك سنرى المسيحية في القرن التاسع عشر، مهيضة الجناح، خائرة القوى، لا يؤمن بها إيمانًا حقيقيًا إلا قليل القليل، بل تكافح نشدانًا للبقاء وتأمين وجودها. في حين أن الأمراء المتوجسين يسعون إلى إنعاشها بواسطة منشطات اصطناعية، مثلما يسعى طبيب إلى إنعاش مريض في النزع الأخير بطيب المسك. فلتصخ السمع لهذا المقطع من كتاب كوندورسيه ([رسم تخطيطي تاريخي] لتقدم العقل البشري، (64) الطور الخامس) الذي يبدو وكأنه قد كتب ليكون تنبيهًا تحذيريًا لزمننا:

«إن الغلواء والحماسة الدينية التي تتملك الفلاسفة والعظماء ليست سوى تقوى سياسية، وكل دين، يتنكب المرء ليدافع عنه كاعتقاد يحسن بنا ترك أمره للشعب، فهو آيل إلى احتضار قد يقصر أمده أو يطول. (Le zèle religieux des philosophes et des grands n'était qu'une dévotion politique ; et toute religion qu'on se permet de défendre comme une croyance qu'il est utile de laisser au peuple, ne peut plus espérer qu'une agonie plus ou moins prolongée.)»(65) (المرحلة الخامسة). على امتداد كل السيرورة التي وصفت أعلاه، يمكنك أن تلحظ باستمرار كيف أن وشائج القربى تشد الإيمان إلى المعرفة دومًا وأبدًا، كأنهما كفتي ميزان: إذا رجحت هذه مالت الأخرى.

في الواقع، هذا الميزان في غاية الحساسية لدرجة أنه يشير حتى إلى المفاعيل اللحظية العابرة. ففي بداية هذا القرن ـ على سبيل المثال ـ أفضت غزوات النهب والسلب التي تسببت فيها الجحافل الفرنسية، بقيادة زعيمهم بونابارت، والجهود العظيمة المبذولة، فيما بعد، لطرد وتأديب هذه العصابة من اللصوص الأوباش (Raubgesindels)، إلى إهمال مؤقت للعلوم ومن ثم إلى تقهقر في انتشار المعارف العامة.

وعلى إثر ذلك أخذت الكنيسة ترفع رأسها مجددًا، وعلى الفور بدأت الحياة تدب في جثة الإيمان من جديد، ولنقل ذلك، كانت حياة من طبيعة شعرية جزئيًا، تتناغم

مع روح العصر التاريخي. ومن جهة أخرى، خلال الثلاثين سنة ونيف، التي مرت من السلام، فالترفيه والازدهار شجّع على نشر ثقافة العلوم ونشر المعرفة إلى درجة نادرة. التي كانت نتيجتها ما ذكرناه أعلاه من انحطاط للدين، وتهديد بالخراب والتقويض. فلربما آن الأوان وباتت اللحظة التي طالما جرى التنبؤ بها وشيكة. حيث سينفصل الدين عن الصقع الأوروبي، (66) على مثال ممرضة لم يعد الطفل في حاجة إلى رعايتها، والذي يجب أن يرعى تربيته الآن مربٍّ (Hofmeisters). فلا شك أن العقائد الدينية المبنية فقط على السلطة والمعجزات والوحي، لا تناسب إلا طفولة الإنسانية.

لكن كل امرئ سيتقبل أن جنسنا عمره إلى الآن، حسب جميع البيانات المادية والتاريخية المتطابقة، لا يعادل أكثر من مئة مرة من حياة رجل عمره ستون عامًا، هو جنس ما برح يرفل في الطفولة الأولى.

ديموفيلس: أواه، حبّذا لو أنك بدلًا من أن تتنبأ بطرب مكشوف بزوال المسيحية، أن تجشم نفسك عناء التفكير بمقدار ما تدين به الإنسانية الأوروبية من دين وفضل لا محدود لهذا الدين الذي وصلها متأخرًا من وطنه الأصلي التليد في الشرق!.. فأوروبا تلقّت عن الشرق نزعة كانت إلى ذلك الزمان غريبة عنها، وذلك باكتشاف هذه الحقيقة الأساسية القائلة: بأن الحياة لا يمكنها أن تكون غاية في ذاتها، لكن الغاية الحقيقية من وجودنا تكمن فيما فوقه.

وبالطبع فالإغريق والرومان كانوا قد وضعوا هذا الهدف **في** الحياة نفسها، ولذلك يمكن ـ بهذا المعنى ـ أن يوصفوا بيقين بالوثنيين العميان. وتبعًا لذلك، فجميع فضائلهم تستحيل إلى ما يخدم رغد العيش المشترك، وما هو نافع. وأرسطو نفسه قال بسذاجة الأطفال: **«إن أعظم الفضائل ينبغي أن تكون بالضرورة تلك الأكثر عودًا بالنفع والمصلحة للآخرين.»** (فن الخطابة، الكتاب الأول، الفصل 9.) (αναγκη δε μεγιστας ειναι αρετας τας τοις αλλοιςχρησιμωτατας.).

ومن ثم، فحب الأوطان، كان أسمى فضيلة بالنسبة للقدماء، حتى إن كان في الواقع شعورًا مريبًا مكتنفًا بظلال من الشك، خاصة أن محدودية العقل وضيق أفقه،

والتشيع والتعصب، وبصورة مفهومة، المصلحة الذاتية لها نصيب وافر في تكوينه في مجمله. وإلى جانب المقطع الذي اقتبسنا لتونا، يحصي أرسطو مجموع الفضائل بغرض شرحها بعدئذ واحدة تلو الأخرى. تشمل هذه الفضائل: العدالة، الشجاعة، الاعتدال، الشهامة (μεγαλοπρεπεια)، المروءة، الكرم، الحلم (Sanftmut)، الحصافة أو الذكاء، وأخيرًا الحكمة. شتان بينها وبين الفضائل المسيحية!.. وحتى أفلاطون، هذا الفيلسوف الذي لا ينازعه فيلسوف آخر في ترانسندنتاليته في العصور القديمة السابقة على المسيحية، لا يعرف فضيلة أسمى من العدالة، التي يوصي بها وحدها بلا قيد أو شرط ولذاتها.

في حين أن الفلاسفة الآخرين يذهبون إلى أن غاية كل فضيلة هي **الحياة السعيدة (vita beata)**، والأخلاق هي إمامها ودليلها الهادي. لقد حرّرت المسيحية الأوروبيين من هذا الانحلال السطحي والفج في وجود سريع الزوال وغير يقيني تافه فارغ.

وذلك بأن أمره بأن يتدبر السماوات، وأن يرفع نظره إلى النجوم.(67)

.caelumque tueri/ lussit et erectos ad sidera tollere vultus
[*86* _ Ovide, Métamorphoses, I, *85*]

وعليه، فالمسيحية لا تكرز بالعدل فحسب، وإنما بمحبة القريب، والشفقة، والخير والإحسان، والمصالحة وتأليف القلوب، ومحبة المرء لأعدائه، والصبر، والتواضع، والتبتل، والإيمان والرجاء. وبالفعل، فقد ذهبت المسيحية شأوًا بعيدًا، فقد كان من تعاليمها أن العالم شر وأننا أحوج ما نكون إلى الخلاص. وبالتبعة فقد دعت إلى ازدراء العالم والتهوين من شأنه، ونكران الذات، ووعظت بالعفة والتطهر والتخلي عن الإرادة الذاتية، بمعنى هجر الحياة ومباهجها الزائفة الزائلة. نعم إنها علمتنا الاعتراف بالقوة المطهرة للعذاب، لذا.. فلا عجب أن رمز المسيحية عبارة عن وسيلة تعذيب. (68)

Telegram:@mbooks90

أقر لك بطيب خاطر أن هذا التصور الجاد وهذه الرؤية الخاصة بالحياة كانت فيما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضى شائعة في آسيا، في أشكال أخرى، منذ آلاف السنين، وهي ما تزال قائمة حتى اليوم بعيدًا وفي استقلال عن المسيحية، لكنها ما زالت في أعين الأوروبيين تشكل وحيًا جديدًا وعظيمًا. فكما هو معلوم فإن ساكنة أوروبا تتألف من قبائل آسيوية نازحة من بلادها الأصلية، ارتحلت عن أرض الأجداد إلى أن استقر بها المقام تدريجيًا هنا. لهذا فهي بسبب حلها وترحالها المستطيل، فقدت دينها الأصلي والفطري وخسرت معه، بالتبعة، رؤيتها وتصورها الصحيحين للحياة. ولهذا السبب، أمكن تلك القبائل، في المناخ الجديد، أن تشكل أديانًا خاصة بها، على فجاجتها، وبخاصة الدرويدية، (69) وعبادة أودين(70) والدين الإغريقي.

تلك الديانات التي كان محتواها الميتافيزيقي تافهًا وسطحيًا. وفي ذلك الأوان، طفق ينشأ لدى الإغريق حس مسرف في الخصوصية بالجمال، بل قد نذهب إلى وصفه بالحس الغريزي، حس كان تفردوا به وحدهم عن سائر شعوب الأرض وأهليها. لذلك، فعلى لسان شعرائهم وعلى أيدي نحاتيهم اكتست الميثولوجيا الخاصة بهم شكلًا جميلًا ومبهجًا.

ومن ناحية أخرى، فالمدلول الحقيقي للحياة، والعميق، كان غائبًا لدى الإغريق ومفقودًا عند الرومان، فقد كانوا يعيشون كأنهم أطفال كبار إلى أن جاءت المسيحية لتدعوهم إلى العودة إلى جدية الحياة.

فيلاليثس: ولنحكم بالنتائج، فما علينا سوى مقارنة العصور القديمة بالعصور الوسيطة التي أعقبتها، لنقل مثلًا زمن بريكلس والقرن الرابع عشر.(71) لا يكاد المرء يعتقد أننا في حضرة نفس نمط الكينونة قبلنا في كلتا الحالتين، فهناك، أجمل ازدهار للبشرية، ومؤسسات دولة من الطراز الرفيع، وقوانين حكيمة، وهيئة قضاة معينة بذكاء، وحرية منظمة بشكل معقول، وشتى صنوف الفن بما في ذلك الشعر والفلسفة، التي لما بلغت أوجها أنتجت أعمالًا وتحفًا ما تلبث.

رغم تصرم آلاف السنين، تنتصب شامخة كنماذج لا نظير لها، كأنها إبداعات وصنائع خلقتها كائنات عليا، لا أمل لنا إلى مضارعتها، وبهذه الكيفية نجعل الحياة بأنبل مؤانسة على نحو ما تصورها لنا **مأدبة** كزينوفونس. والآن، انظر إلى هذه

الناحية، إن استطعت إلى ذلك سبيلًا. فلتنظر إلى العصر الذي كانت فيه الكنيسة تقيد الأرواح، وحيث كان العنف يكبل الأجساد، حتى يتمكن الفرسان والوعاظ من وضع كل عبء الحياة الثقيل على كاهل دابة التحميل المشتركة، أي الطبقة الثالثة.

سيلفي هناك إذًا قانون الأقوى، والإقطاعية والتعصب في حلف ضيق مغلق، وفي أعقابهما الجهل الرهيب والظلامية الروحية، مع ما يقابلها من اللاتسامح، والصراعات الدينية، وحروب الأديان، والحروب الصليبية واضطهاد الهراطقة ومحاكم التفتيش. ويأخذ فيها التعايش الاجتماعي شكل فروسية رتقت بالهمجية وغلظة الطبع والتصنع والتغندر، في ختله وسفسفته وغباوته المرسخة بنظام والمغروسة في كيانه بحذق، مع خرافاتها المهينة وتبجيلها المتكلف للإناث، تبجيل ما تلبث آثاره حية في أنواع التودد والتغزل، التي تقابل بعنجهية وغطرفة أنثوية مستحقة عن جدارة نسدد دينها، والتي تكون مادة لضحك هستيري لا يتوقف للآسيويين كافة، والإغريق لا بد سينضمون إلى جوقتهم.

ففي العصور الوسطى الذهبية، بلغ هذا الأمر بالطبع حد عبادة النساء عبادة صريحة ومنهجية، هذا فضلًا عن المناقب البطولية، **ومحاكم الحب العذري (cours d'amour)**، (72) وأغاني الشعراء الجوالين المنمقة، وما إلى ذلك. مع ذلك لنسجل أن المهازل الأخيرة، التي يداخلها بُعد فكري، كانت قد وقعت بالأساس على أرض فرنسا. أما عند الألمان الماديين البلَه، ثقيلي الفهم، فقد برع الفرسان أكثر في العربدة والقصف والسلب والنهب، فالعس(73) والقلاع كانا شاغل وملاذ هؤلاء البارونات ـ اللصوص الأول، فما خلا حتى البلاط أيضًا من بعض شعراء الحب المنشدين البائخين الباهتين (Minnesängerei).(74) لماذا تغير مسرح الأحداث إلى هذا الحد؟.. لقد تغير من جراء هجرة الشعوب (völkerwanderung) والمسيحية.

ديموفيلس: من الجيد أنك ذكرتني بذلك. فهجرة الشعوب كانت منبت الشر والمسيحية كانت السد الحاجز الذي أوقف زحفها. لقد كانت المسيحية، في المقام الأول، الأداة التي ألجمت وروضت الجحافل الهمجية غليظة الطباع التي لفظها طوفان هجرات البشر. فمن الواجب على الإنسان البربري أن يركع أولًا، ويتعلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مبادئ التبجيل والطاعة، ومن ثم يمكن تأديبه وتهذيبه. وهذا عين ما صنعه القديس باتريسيوس في إيرلندا، ووينفريد دي ساكس في ألمانيا، الذي أصبح بونيفاسيوس حقيقيًا (bonifatius).(75)

إن موجة الهجرات الكبرى، هذا الزحف الأخير للقبائل الآسيوية باتجاه أوروبا، وفي أعقابه غارات يائسة على ذات المنوال لم تظفر بطائل قامت بها كل من عصابات أتيلا، وجينكيز خان وتيمور. فالغجر، كخاتمة هزلية، قد كانت هجرة الشعوب هذه هي ما جرف إنسانية (Humanität) العصور القديمة في تيارها. لكن المسيحية كانت بمثابة المبدأ الفعال الذي وقف في وجه البربرية، تمامًا مثلما ستمسي بعد ذاك الكنيسة بتراتبيتها الهرمية طيلة العصور الوسطى.. ضرورة ملحة من أجل فرض بعض الحدود والأوامر والنواهي على فظاظة ووحشية أولي القوة والبأس، وعلى الأمراء والفرسان.

لقد غدت الكنيسة كأنها كاسحة طبقات الجليد القاسية لذوي السطوة والمهابة أولاء. ومهما يكن من أمر، فإن الهدف من المسيحية بصفة عامة هو أقل من أن يجعل هذه الحياة بهيجة رضية، بل في المقابل جعلنا جديرين بحياة أفضل. إنها تتشوف إلى أبعد من هذه البرهة القصيرة من الزمن، ومن هذا الحلم العابر، لتأخذ بأيدينا إلى الخلاص الأبدي. إن منزعها أخلاقي بما لهذه الكلمة من أسمى المعاني، معنى ما كان قط معروفًا في أوروبا، مثلما سبق وبينت لك حينما وضعت أخلاق القدماء ودينهم في مقابل نظيريهما في المسيحية.

فيلاليتس: لا غبار على هذا نظريًا، ولكن أخفض عينك إلى واقع الحال. لا مشاحة أن إنسان العصور القديمة، إذا ما قورن بالقرون المسيحية اللاحقة، كان أقل قسوة وفظاظة من إنسان العصر الوسيط الذي سام الناس العذاب حتى الموت (Todesmartern) وأعد لهم محارق عديدة.

وإلى ذلك، فقد كان القدماء قمة في التسامح، وكانوا حريصين أيما حرص على العدالة، وكثيرًا ما فدوا أرض الأجداد (Vaterland) بأرواحهم، وتحلوا بمناقب وخصال حميدة من كل فن، كما أبانوا عن نزعة إنسانية أصيلة غير مصطنعة

إلى حد أنه إلى أيامنا هذه لا زالت دراسة أفعالهم وأعمالهم وأفكارهم تسمى بـ «الإنسانيات» (Humanitätsstudium).

وعلى العكس من ذلك، اجتنينا من المسيحية حروب الأديان، والمجازر الدينية، والحروب الصليبية، ومحاكم التفتيش إلى جانب محاكمات أخرى للهراطقة، وإبادة شعوب أميركا الأصليين وإحلال أقنان أفارقة في مكانهم. كان هذا حصاد المسيحية ولا شيء يمكن أن يضاهيه أو أن يدانيه أو يقارن به في دابر العصور. أما أقنان القدامى وعبيدهم، **والخدم المنزلي (familia)، والخدم الذين ولدوا في بيت سيدهم (vernae)**، هذا الجنس البشري القانع الطيع الوفي لسيده، فيختلفون صارخ الاختلاف، على نحو ما تختلف ألوان بشرتهم، عن العبيد الزنوج المتاعيس في مزارع قصب السكر، الذين يمثلون معرة ووصمة عار على جبين الإنسانية.

فلا مرية أن إظهار التسامح المذموم مع اللواط الذي يمثل الاتهام الأساسي الذي نرمي به أخلاق القدامى، ما هو سوى زلة صغيرة ولَمم تافه قياسًا إلى الفظائع المسيحية التي عددت بعضها آنفًا، وحتى بين المحدثين فهذه الرذيلة أبعد من أن تكون نادرة كما افترض ذلك بتعلة ظهورها القليل. فهل بوسعك إذًا، إن كنت تزن الأمور بالقسطاس المستقيم، أن تؤكد تأكيدًا مطبقًا أن أخلاق الإنسانية قد غدت أحسن حالًا بفضل المسيحية؟.

ديموفيلس: إذا كان النجاح لم يتوافق في جميع بقاع العالم مع نقاء وصحة المذهب (Richtigkeit)، فذلك قد يكون راجعًا إلى أن ذلك المذهب كان غاية في النبل، وقمة في السمو والرفعة بالنسبة للإنسانية، وبالتالي فالهدف كان قد وضع في موضع أعلى من قدراتهم. بديهي.. أن التزام الأخلاق الوثنية كان أسهل بالطبع، بنفس سهولة اتباع الأخلاق المحمدية. ثم إن الأشياء السامية والجليلة بالذات هي الأكثر عرضة، في كل مكان، للعسف والخداع، لأن **أسوأ ألوان العسف هو عسف الأشياء العظيمة (Abusus optimi pessimus).**

ولهذا السبب أيضًا، كانت هذه المذاهب النبيلة تتخذ من حين إلى حين ذريعة لأشنع الأفاعيل وأفدح الفظاعات. لكن، يعود انهيار مؤسسات الدولة القديمة ناهيك

عن فنون وعلوم العالم القديم، كما أوضحت أعلاه، إلى نزوح وتسلل البرابرة الأجانب. كان حتميًا فيما بعد أن تكون للجهل والغلظة اليد الطولى، وأن يبسط على أثر ذلك كل من العنف والخداع سلطانه، وأن يغدو الفرسان والكهنة عبئًا يجثم على كاهل الإنسانية.

ومع ذلك، يمكن أن يفسر هذا جزئيًا بواقعة أن الدين الجديد يوصي بالسعي وراء الخلاص الأبدي، بدلًا من زينة الدنيا الزمنية الزائلة، ويعطي الأولوية لبساطة القلب على معرفة الرأس، وكان معاديًا كارهًا لكل طيبات الأرض ومباهجها، التي تجعلنا العلوم والفنون أيضًا نتذوقها. ولكن، كلما كانت تلك العلوم والفنون في خدمة الدين وخاضعة له، تعهّدت بالرعاية والاهتمام، وبلغت درجة ما من الازدهار.

فيلاليثس: سيكون ذلك في نطاق ضيق ومحدود جدًا. غير أن العلوم كانت دائمًا رفقاء مشبوهين وباعتبارها كذلك بقيت تحت الحجر. ومن ناحية أخرى، فالجهل العزيز على القلوب، هذا العنصر الضروري كل الضرورة بالنسبة للمذاهب الدينية، فقد كان يغرس بعناية فائقة.

ديموفيلس: ومع ذلك فما راكمته الإنسانية من المعرفة حتى ذلك الحين، وكل ما وثقته في كتابات القدامى، فقد نجا من الإتلاف على يد رجال الدين، ولا سيما في الأديرة.(76) أواه، ما عساه كان سيحدث في أعقاب الهجرات الكبرى للشعوب إن كانت المسيحية لم تظهر قبل ذلك بزهاء قليل؟!.

فيلاليثس: سيكون تحقيقًا مفيدًا للغاية إذا حاول المرء، على حسب استطاعته، أن يزن بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والتجرد، وبحياد ونزاهة ودقة، حسنات الأديان ومزاياها التي راكمتها [على مدى سنين] والأضرار والمساوئ التي تمخضت عنها. وطلبًا لهذه البغية، فنحن بحاجة بالطبع إلى ركام ضخم من البيانات التاريخية والسيكولوجية أكبر بكثير مما هو متاح لكلينا معًا. يمكن للأكاديميات أن تجعل من ذلك موضوع مقالة يتنافس على جائزتها المتنافسون.

ديموفيلس: سوف يحسبون لذلك ألف حساب.

فيلاليثس: أستغرب شديد الاستغراب لسماعك تقول ذلك، لأن في ذلك نذير شؤم وطيرة على الأديان. علاوة على أن ثمة أكاديميات تنطوي أسئلتها على الشرط الضمني القائل بأن الجائزة ستبذل إلى أيما شخص يحسن أفضل من غيره العزف على نفس وترها. يا حبذا لو أن إحصائيًا يطلعنا أولًا على عدد الجرائم التي تحول الزواجر الدينية دون وقوعها كل سنة، وعن عدد الجرائم التي تحركها بواعث أخرى.

لا شك أن الزواجر الأولى لا تمنع إلا قليل القليل من الجرائم. وبالفعل، فحينما يستبد برجل ما إغواء ارتكاب جريمة، فأول شيء يقف في وجه هذه الفكرة هو، بلا شك، العقاب الذي سيناله جزاء على ما أتت يداه، واحتمال ضبطه متلبسًا بالجرم المشهود، ثم كتوجس ثانٍ يأتي اعتبار يتعلق بالخطر الذي تجره فعلته على سمعته.

إن لم أجانب الصواب، فسوف يمعن ذلك الشخص التفكير لساعات طوال في هاتين العقبتين قبل أن يفكر في الاعتبارات الدينية. لكن بمجرد ما يتجاوز ذينك المتراسين الأولين الحائلين دون الجريمة، فلا أعتقد أن الدين **وحده** سيثنيه في أرجح الظن عن المضي قدمًا.

ديموفيلس: أنا أعتقد، في المقابل، أن الدين سيثنيه دائمًا، ولا سيما إن كان تأثير الدين قد فعل فعله عبر وسيط العادة، فينكص المرء فوزًا على عقبيه وينغمس في حمأة الآثام والرذيلة. لأن الانطباعات الأولى سرعان ما تنشب وتترسخ في الأذهان. ولأبين الأمر بيانًا شافيًا، فلتتأمل بذهنٍ صافٍ جحافل الناس، خاصة من نبيلي المحتد، الذين يوفون دائمًا بما قطعوا من وعود رغم باهظ التكاليف، ثابتي العزم فقط لأن آباءهم، في طفولتهم، كانوا يكررون على مسامعهم بسيماء صارم: **«إن رجل الشرف، أو الجنتلمان (gentleman)، (77) أو الفارس، يفي بوعده دائمًا وأبدًا».**

فيلاليثس: من دون شيء من **الاستقامة (probitas)** الفطرية فذلك غير ممكن أيضًا. لا يمكنك أن تنسب إلى الدين ما هو ثمرة الطيبة الفطرية للطبع، التي بفضلها تحول شفقته على الضحية دون ارتكاب الجريمة. إن هذا هو الدافع الأخلاقي الحق، وبما هو كذلك، فهو مستقل عن الأديان جميعها.

ديموفيلس: ولكن، حتى هذا الدافع، هو نادرًا ما يكون فعالًا وناجعًا على جمهور

الناس إذا لم يكن ملتحفًا بعباءة دوافع دينية، التي يتقوى ويتوطد من خلالها في أي حال من الأحوال. ولكن من دون، مثل ذلك الأساس الطبيعي، فالدوافع الدينية لوحدها تكفي في الغالب لردع ولجم الجرائم. ولا ينبغي لهذا أن يثير دهشتنا في حالة من جانب عامة الشعب، وبخاصة حين نرى أناسًا على قدر عالٍ من الثقافة والتربية رازحين بين الفينة والأخرى تحت تأثير ليس الدوافع الدينية **في ذاتها**، المبنية في واقع الأمر وبصفة دائمة، مجازيًا على الأقل، على الحقيقة، ولكن بدلًا من أكثر الخرافات عبثية، التي يجيزون الاسترشاد بها طوال حياتهم. فعلى سبيل المثال: ألا يباشروا أي شيء يوم الجمعة، ألا يقعد ثلاثة عشر نفرًا على طاولة واحدة، أن يطيعوا الطوالع والنذر الجزافية (omnibus)، وهلم جرًا من الخزعبلات. إن كانت هذه حالة الرجال المتعلمين، فما عساها تكون بين عامة الناس؟.

ببساطة، ليس بوسعك أن تتصور مدى الحصر المطبق الذي يشل العقول الفظة، إنه يكون قاتمًا جدًا فيها، وخاصة حين ـ وهذا عين ما يحدث في مرار كثيرة ـ يكون قلب فاسد (schlechtes)، وظالم وخبيث حقود (boshaftes) محضنًا لها.(78) إن من أوجب واجبات هذا الصنف من الكائنات، الذي يؤلف سواد الجنس البشري، أن توجه وتقيد وتلجم أحيانًا على قدر الطاقة والاستطاعة، ولو بتوسل دوافع خرافية حقيقة وفعلًا، في انتظار أن يصيروا مهيئين أكثر لدوافع أصح وأقوم وأفضل.

إن شهادة المفعول المباشر للدين ثلمس حين ـ وهذا مثلًا ما يتكرر حدوثه في إيطاليا بخاصة ـ يأذن السارق لكاهن الاعتراف (Beichtvater) بأن يرد المسروقات إلى أصحابها، لأنه هذا كان شرطه ليمنحه الغفران. ثم فلتستحضر في ذهنك حلف اليمين، الذي يبرهن الدين من خلاله عن تأثيره الأكثر حسمًا. ولربما بسبب أن شخصًا ما يرى في نفسه أنه وضع صراحة وبوضوح في مقام مجرد **كائن أخلاقي** وبصفته تلك يشعر بالتزام صارم، فهكذا يبدو الأمر في فرنسا، حيث أن صيغة حلف اليمين هي ببساطة **«أقسم لك»**(79)(Je le jure)، والذي ينظر إليه الكويكريون (Quäkern) بنفس الطريقة بما أن **نعم** أو **لا** المقدستين مقبولتان بدلًا من أداء قسم اليمين. والحال أنه ربما بسبب أن امرأ اعتقد بحق في خسران ومصادرة نعيمه الأبدي

(ewigen Seligkeit)، الذي يعبر عنه اليمين.

وهذا اعتقاد قد لا يكون سوى تمويه للإحساس الأول. وعلى أي حال، فإن الأفكار الدينية هي بمثابة وسيلة من وسائل إيقاظ واستدعاء طبيعته الأخلاقية. كم مرة كانت الأيمان المختلقة والكاذبة مقبولة في أول الأمر؟!.. لكن بمجرد ما أن تصبح الأمور جديةً، سرعان ما يُتنصل من بَرّها، ما يؤدي بالنهاية إلى انتصار الحقيقة والعدالة.

فيلاليثس: بل يحدث كذلك في مرات كثيرة، أن تقطع أيمان كاذبة فتنكث، حيث تدوس بالأقدام من ثم على الحقيقة والعدالة، بتواطؤ (Mitwissenheit) فاضح من جميع من كانوا شهودًا عيانًا على الفعلة النكراء. إن أداء قسم اليمين هو جسر المُهر الميتافيزيقية (die metaphysische Eselsbrücke) لرجال القانون، إن عليهم أن يلجؤوا إليه أقل ما يمكنهم ذلك وإنسانيًا كلما وسعهم ذلك. ولكن إن لم يكن من ذلك بد، فينبغي أداؤه بأكبر قدر من الجدية والمهابة، وقطعًا ليس في غياب رجال الدين، ولو في كنيسة أو كنيسة صغيرة (Kapelle) ملحقة ببناية المحكمة.

وفي بعض الحالات المشبوهة للغاية، سيكون من الأجدى والأنفع السماح حتى لأطفال المدارس بأن يكونوا من بين الحضور. وهذا السبب على وجه التحديد هو ما يجعل الصيغة الفرنسية المجردة للقسم عقيمة عديمة الجدوى بإطلاق، إذ يجب أن يترك تجريد معطى إيجابيًا معينًا لعملية التفكير الخاصة بكل فرد، على وفق مستوى تعليمه وثقافته.

الآن، إن معك كل الحق لتستشهد باليمين كمثال لا يقبل الشك ولا الدحض، دلالةً على الفعالية العملية للدين. مع ذلك، وعلى الرغم من كل ما قلته وبسطته من حجج، لا بد لي من الشك فيما إن كان بوسع هذه الفعالية أن تذهب أبعد.. تخيل لبرهة من الزمن فحسب، أنه عرض على حين فجأة، وعلقت جميع القوانين الجنائية بموجب بيان أصدرته سلطة عمومية، ففي هذه الحالة، لا أعتقد أننا، لا أنا ولا أنت، سيملك الشجاعة حتى ليسير إلى داره بمفرده من هنا تحت حماية الدوافع الدينية.

ومن جهة أخرى، ففي حال أعلنت الأديان كافةً أنها غير صحيحة بنفس الطريقة،

لواصلنا العيش كما عشنا في الأيام الخوالي من قبل في ظل حماية القوانين وحدها، من غير أن نزيد من منسوب مخاوفنا وتعداد إجراءاتنا الاحترازية. ولكن لا يزال عليّ أن أقول: إن للأديان، ولا ريب، مفعولًا مفسدًا للأخلاق (demoralisirenden). وبصفة عامة، يمكن القول إن ما ينهض به من واجبات تجاه الله، هي واجبات منزوعة ومجردة من واجبات تجاه البشر، بما أنه من الملائم جدًا تملق الله كبديل عن السلوك الخير تجاه الناس. وبالنتيجة، نرى في جميع الأزمنة وفي كل البلدان، أن الكثرة الكثيرة من الناس يهتدون إلى أنه من الأسهل بكثير التوسل والتضرع إلى السماء في صلواتهم بدلًا من الكسب بأفعالهم وأعمالهم.(80)

في كل دين من الأديان، سرعان ما يصل إلى نقطة حيث تعلن الموضوعات الأولية للإرادة الإلهية بأنها ليست أعمالًا أخلاقية تمامًا، مثلما هي الإيمان، واحتفالات المعبد وطقوس التبتل والتعبد من ضروب شتى. أجل، فحتى أن هذه الأخيرة تصبح في نهاية الأمر بدائل للأولى، خاصة حين تكون وثيقة الصلة بأتعاب الكهنة.

قرابين وأضاحي حيوانية في المعبد، أو إقامة القداديس، أو تشييد كنائس أو معابد صغيرة، أو أضرحة على جنبات الطرق سرعان ما تصبح أرفع الشعائر وأكثرها مجلبة للتقدير والتعظيم. ومن ثم، فحتى الجرائم التي يشيب لها الولدان، يكفر عنها. وكذلك على مركب التوبة أو الكفارة، والخضوع للسلطة الكهنوتية، والاعترافات، ورحلات الحج، ونفح الكنائس وسدنتها بجزيل الأعطيات والتبرعات، وبناء الأديرة، وما شابه ذلك صنوف البذل.

ويبلغ الأمر مبلغًا يظهر فيها الكهنة في خاتمة المطاف كمجرد مساعدين ووسطاء لآلهة من المرتشين النهمين. وإن كانت الأمور لن تبلغ إلى ذلك المبلغ، فأين الدين الذي لا ينظر أتباعه إلى الصلاة على الأقل.. والترانيم الغنائية(81) وضروب أخرى من الطقوس التعبدية إلى حد ما كبديل جزئي عن السلوك الأخلاقي؟. فلتنظر مثلًا إلى إنجلترا، حيث إن تدليس وخداع الكهنة الوقح، يماهي كذبًا الأحد المسيحي بيوم السبت اليهودي. وحتى باستخدام نفس الاسم، على الرغم من أن قسطنطين الأكبر كان قد أقر الأحد وفرضه في مقابل يوم السبت المقدس، وذلك من أجل نقل وصايا

يهوه الخاصة بالسبت. أي اليوم الذي كان فيه على الله الجبار القدير أن يستريح بعدما أخذ منه النصب واللغب على إثر عمل ستة أيام تباعًا كل مأخذ، ما يجعله **بالأساس اليوم الأخير** من أيام الأسبوع، [أقول من أجل نقلها] إلى الأحد المسيحي، **يوم الشمس** (diem solis).

هذا اليوم الأول المجيد الذي يفتتح به الأسبوع، (82) يوم التعبد والورع والغبطة والرُوح. وكنتيجة لهذا النصب (Unterschleifs) والتملك غير المشروع، بتنا نسمع في إنجلترا في أيامنا عبارات **«الاعتداء في السبت»** (sabbathbreaking) أو **«انتهاك حرمة السبت»** (the desacration [desecration] of the Sabbath). (83) بمعنى: أنه في أيام الأحد، فأي شغل كان، سواء كان مفيدًا أو ممتعًا، وأي لهو ولعب، وأية موسيقى، وأية حياكة أو ترتيق، وأي كتاب دنيوي، فكل ذلك يعد من كبائر الخطايا.

ألا يجب على الرجل العادي أن يعتقد أنه يكفيه أن يفعل دائمًا، ما أمره به مرشدوه الروحيون؟.. **«التقيد الصارم بالسبت المقدس والمواظبة على حضور طقس الخدمة الإلهية»** (a strict observance of the holy sabbath and a regular attendance on divine service).(84) بعبارة أخرى: لو أن ذلك الرجل تخلف فقط في أيام الآحاد عن القعود لساعتين كاملتين في الكنيسة، يهدر وقته سدى بثقة وبأقصى ما يمكن، أملًا في أن يسمع نفس صلاة الابتهال للمرة الألف ويهذر ويثرثر مع أي كان في جوقة المنشدين (a tempo).

ألن يشعر باختلافه وفي حقه بأن يعول على يسير من الحلم والصفح فيما يخص هذا أو ذاك الشيء الصغير الذي كان أحيانًا يبيحه لنفسه؟.. هؤلاء الشياطين في شكل بشري، من النخاسين وتجار العبيد في الولايات المستقلة في أميركا الشمالية (حري بنا تسميتها بولايات العبودية)، هم عادة من الأرثودوكس والإنغليكان الورعين الذين يعتبرون العمل يوم الأحد خطيئة كبرى، والذين بتصديقهم لذلك وفي ترددهم المنتظم على الكنيسة، يتشوفون إلى النعيم الأبدي.(85)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى ذلك، فإن تأثير الأديان المفسد للأخلاق هو أقل إشكالًا من تأثيره الأخلاقي. ومن ناحية أخرى، فكم ينبغي أن يكون ذلك التأثير الأخلاقي عظيمًا ويقينيًا ليقدم تعويضًا عن عظيم الأهوال والفظائع التي تسببت فيها الأديان؟.. وبخاصة المسيحية والدين المحمدي، وجسيم المصائب والمآسي التي جروها على الإنسانية!.. تفكر في التعصب الديني الأهوج، وفي مسلسل الاضطهادات التي لا تنتهي، وتكفر في المقام الأول في جحيم الحروب الدينية.

هذا الجنون الدموي الذي ما كان للقدماء أن يتخيلوه، ثم تفكر في الحروب الصليبية، هذه المذبحة غير المسؤولة التي لا مبرر لها على الإطلاق، والتي سفح فيها الدم لمئتي سنة على هتاف الحرب: **«إنها إرادة الله!»** (Gott will es)، من أجل فتح وغزو لخد ومرقد من كان يبشر بالمحبة ويكرز بالتسامح. تفكر في الطرد الجماعي والإبادة الوحشية للموريين واليهود من إسبانيا، (86) وتفكر في حمامات الدم، (87) وفي محاكم التفتيش، وفي محاكمات أخرى للهراطقة.

وكذلك الفتوحات العظيمة والدموية لأتباع محمد لثلاث قارات من العالم، لكن لا تنسَ أن تفكر أيضًا في غزوات المسيحيين لأميركا، التي أبيدت فيها الأغلبية الكبرى من السكان الأصليين، بل عن بكرة أبيهم في كوبا. فوفقًا لـ[بارتولومي] لاس كازاس (Bartolomé Las Casas) فقد قتل اثنا عشر مليونًا من البشر في ظرف أربعين عامًا، وقد بات مفهومًا للجميع أن كل ذلك الدم المسفوك كان في سبيل **مجد الله الأعظم** (in majorem Dei gloriam)، (88) وبطبيعة الحال، في سبيل نشر الإنجيل وبسبب ـ علاوة على ذلك ـ أن من لم يكن مسيحيًا كان لا يحسب في عداد البشر.

ولقد تطرقت إلى هذه الأشياء من قبل، في واقع الأمر، ولكن متى ما دمنا إلى أيامنا هذه نطبع **آخر الأخبار من ملكوت الله** (Neueste Nachrichten aus dem Reiche Gottes)، (89) فإننا لن نسأم ولن نمل من تذكير الناس بالأخبار القديمة. ودعنا لا ننسَ الهند بشكل خاص.. هذه الأرض المقدسة، المهد الأول للجنس البشري، وعلى الأقل مهد العرق الذي ننتسب إليه نحن، حيث كان المحمديون أولًا

ثم المسيحيون من بعدهم يتميزون سخطًا وغيظًا من أتباع الدين الأصلي المقدس للإنسانية، والأمر الداعي إلى الرثاء والأسف أكثر مما عداه، هذا التدمير الغشوم والوحشي وتشويه معالم معظم المعابد القديمة وصور الآلهة (Götterbilder) وتماثيلهم التي تنتصب شاهدة حتى يوم الناس هذا على مخلفات الاهتياج التوحيدي للمحمديين، على نحو ما اجترح منذ عهد محمود الغزنوي (Mahmud dem Ghazneviden)، (90) قطع الله نسناسه،(91) وصولًا إلى أورانغزيب (Aurengzeb)(92) قاتل إخوته، واللذين شحذ المسيحيون البرتغاليون بتفانٍ وإخلاص عقب ذلك وسع طاقاتهم للنسج على منوالهما وذلك من خلال هدم وتقويض المعابد ومن خلال **الإعدام حرقًا** (Autos de Fe)(93) في محاكم تفتيش غوا.(94)

ولا ينبغي كذلك أن يعزب عن أذهاننا أن شعب الله المختار، الذين بعدما سرقوا أواني الذهب والفضة التي أعارها لهم أصدقاؤهم القدامى، حسنو الطوية في مصر، انصرفوا بأمر خاص وصريح من يهوه إلى أعمال البطش(95) وغزوات السلب والنهب في **«الأرض الموعودة»** (Land der Verheißung)، وموسى سفاك الدماء في طليعتهم.

وكل هذا لا لشيء، إلا بنية اغتصاب «الأرض الموعودة» من أصحابها الشرعيين،(96) ودائمًا بأمر صريح ومتكرر باستمرار من يهوه، بأن يكونوا ثابتي الجأش وألا تأخذهم رحمة ولا شفقة وهم يثخنون في القتل ويقطعون دابر جميع الأهالي، بلا هوادة، وأن يقتلوا حتى النساء والأطفال (سفر يشوع، الإصحاحان 10 و11)، (97) ليس لسبب وجيه إلا بحجة أن هؤلاء الأخيرين غير مختونين ولا يعرفون يهوه، وهو سبب كافٍ ليبرر أفدح الفظاعات والشناعات التي أنزلوها بهم. ولذات الدافع في زمن سابق، رويت لنا خسة ونذالة وخبث البطريرك يعقوب وشعبه المختار إزاء حمور، ملك سالم، وإزاء شعبه(98) تمجيدًا وتعظيمًا للأول لأن الثواني كانوا من الكافرين (سفر التكوين، الإصحاح 34).(99)

وفي الحقيقة، فهذا أبشع وجوه الأديان، فأن يخيل إلى المؤمنين بدين من الأديان أن كل شيء مباح وجائز إزاء كل المؤمنين بالأديان الأخرى، وأن يعاملوهم بناء على ذلك بمنتهى القسوة والوحشية. فكذلك سام المحمديون المسيحيين والهندوس سوء العذاب. وكذلك فعل المسيحيون ضد الهندوس، والمحمديين، وشعوب أميركا الأصليين، والزنوج، واليهود، والهراطقة، وهلم إبادة وقتلًا. ولربما سأذهب أبعد من ذلك إلى القول إن **كل** الأديان، لأنه من الواجب عليّ أن أضيف، مراعاة للحقيقة وتمجيدًا لها، أن فظائع التعصب الأعمى التي ارتكبت بـ اسم هذا المبدأ لا يتحمل تبعتها في الواقع إلا أتباع الأديان التوحيدية، وعليه فهي من مسؤولية اليهودية وفرعيها المسيحية والإسلام.(100)

ومثل هذه الأشياء، ما أوثرت قط عن الهندوس والبوذيين. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نعلم أن البوذية كانت قد طردت من موطنها الأصلي، في أهم منطقة من شبه جزيرة الهند، من طرف البراهمانيين في حوالي القرن الخامس من تقويمنا الزمني، ومن ثم لتنتشر في جميع أرجاء آسيا. وإن كان على حد علمي، ما وصلنا من أخبار مؤكدة وموثوقة عن أي أفعال عنف، أو عن حروب وفظاعات وحشية كان لها دور في ذلك.

وبطبيعة الحال، يمكن عزو هذا إلى الظلام الذي يرخي بأسداله على تاريخ تلك البلدان، ولكن الطبع الدمث والحليم للغاية لهذه الأديان، التي تغرس في النفوس باستمرار الرحمة اتجاه كل **الكائنات الحية**. وفضلًا كذلك عن حقيقة أن البراهمانية، بسبب من النظام الطائفي، لا تسمح بأي متحول حديثًا إلى طائفتها، ما يسمح لنا بأن نأمل بأن أتباعها سيستنكفون عن إراقة شلالات الدم وعن الفظائع بكل أصنافها. يكيل سبنس هاردي (Spence Hardy) المديح ويشيد في كتابه البديع **الرهبانية الشرقية**، (101) وبالتحديد في الصفحة 412، التسامح الاستثنائي والنادر للبوذيين ويضيف التأكيد: أن حوليات البوذية تقدم أمثلة أقل عن الاضطهاد الديني مقارنة بأي دين آخر.(102)

وبالفعل، فاللاتسامح ليس أساسيًا إلا للعقيدة التوحيدية. فالإله الذي لا شريك له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو بطبيعته إله غيور لا يرضى لإله آخر بأن يعيش إلى جانبه. وعلى الضد من ذلك، فالآلهة التعددية هي بطبيعتها متسامحة؛ إنها تعيش وتسمح لغيرها بأن يعيش، وهي تتسامح بطيب خاطر في المقام الأول مع نظرائها، آلهة نفس الدين. وبعد ذلك يمتد هذا التسامح إلى الآلهة الأجنبية، التي تستقبل بناء على ذلك بحفاوة، ولاحقًا تكتسب في بعض الأحيان نفس الحقوق المدنية (Bürgerrecht)، كما برهن على ذلك من قبل مثال الرومان، الذين استقبلوا بملء إرادتهم ومجدوا الآلهة الفريجية والمصرية وآلهة أجنبية أخرى.

ولهذا ففي الأديان التوحيدية وحدها نقف على مشهد الحروب الدينية، والاضطهاد الديني، ومحاكمات الهراطقة، ناهيك بمشهد تحريم عبادة الصور والتماثيل الدينية، وإبادة صور الآلهة الأجنبية الدخيلة، وهدم معابد الهندوس والتماثيل المصرية الماردة التي كانت تنظر إلى ضوء الشمس بثبات طيلة ما يربو عن ثلاثة آلاف سنة. كل ذلك لأن الإله الغيور كان قد قال لأحدهم: «لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا»، إلخ. (103)

ولكن لنعد إلى صلب الموضوع، لا مراء أنك على حق في تشديدك على حاجة الإنسان القوية إلى الميتافيزيقا، ولكن لا تبدو الأديان في عيني إشباعًا وإرواء لتلك الحاجة الحيوية بقدر ما تبدو عبثًا بها وإفسادًا لها. وعلى الأقل فقد رأينا من جهة تهذيب الأخلاق أن فائدتها ونجعها إشكالي ومعضل إلى حد بعيد، وأن مساوئها في المقابل، ولا سيما الفظاعات والشناعات التي حدثت في أعقابها كانت تغشى الأبصار.

ومن طبيعة الحال، فالمسألة تبدو مختلفة متى أخذنا في الحسبان ركوب صهوة الأديان لاعتلاء العروش، إذ متى كانت هذه الأخيرة موهوبة بمنة إلهية، فالمذبح والعرش سيظلان وثيقي اللحمة. وبناء عليه، فأيما أمير حكيم يحب عرشه وعائلته سيسير دائمًا على رأس شعبه كنموذج يحتذى للتدين الحقيقي. تمامًا كما فعل ماكيافيلي نفسه حين نصح بإلحاح الأمراء بالظهور بمظهر التقوى والورع، في الفصل الثامن عشر [من الأمير]. وعلاوة على ذلك، يمكننا أن نسجل أن الأديان الموحى بها تمثل بالنسبة للفلسفة ما يمثله حكام النعمة الإلهية لسيادة الشعب، وهذا هو السبب

في وجود تحالف طبيعي بين الحدين الأولين من مقارنتنا.

ديموفيلس: أواه! رجاء لا تتحدث بمثل هذه اللهجة! وفي مقابل ذلك، دع في اعتبارك أنك تغني على نفس لحن الغوغائية (Ochlokratie) والفوضى، هذان العدوان اللدودان لكل نظام قانوني، ولكل مدنية ولكل إنسانية.

فيلاليثس: أنت على حق. كانت تلك مجرد سفسطة، أو ما يطلق عليه أسياد المبارزة بالضربات القذرة (Sauhiebe).(104) لذا سأسحب ما قلته سلفًا. ولكن ألا ترى كيف يمكن للجدال والسجال أن يحيلا رجلًا صادقًا وطاهر الذيل إلى رجل حائف معتد وخبيث ضغن؟.. وعليه، فلنتوقف هنا.

ديموفيلس: بعد كل ما بذلت من جهود في سبيل إقناعك، أتحسر لأنني لم أوفق إلى تغيير أفكارك بشأن الأديان. لكن في المقابل، في وسعي أن أؤكد لك أن كل ما قلته من ادعاءات لم يزحزح قيد أنملة اقتناعي بقيمة الأديان العالية وضرورتها الملحة.

فيلاليثس: أصدقك. إذ كما كتب في هوديبرا(105):

«أيما رجل مقتنع ضدًا على إرادته يبقى على رأيه».

A man convinced against his will

.Is of the same opinion still

لكني أعزي نفسي بفكرة مفادها: أن في المماحكات والمجادلات كما في الحمامات المعدنية لا يحدث الأثر الحقيقي إلا فيما بعده.

ديموفيلس: وعلى ذلك أتمنى لك تأثيرًا بعديًا مباركًا ميمونًا.

فيلاليثس: لربما يكون ذلك، لكن كان ثمة مثل إسباني مأثور ما يزال يؤرقني.

ديموفيلس: وماذا كان؟..

فيلاليثس: .Detras de la cruz está el Diablo

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ديموفيلس: باللغة الألمانية، أيها الإسباني!

فيلاليثس: طوع بنانك! **«خلف الصليب يقبع الشيطان.»**

ديموفيلس: هيا، لا أرغب في أن نفترق بالتهكمات والسخرية، لنقرّ بالأحرى بأن الدين، مثل جانوس (106) JANUS أو أفضل من ذلك أيضًا، مثل ياما Yama إله الموت البراهماني.. يملك وجهين، ومثله تمامًا. أحد الوجهين كان ودودًا ومحبوبًا والآخر جهمًا كالحًا، لكن كل واحد منًا ما رأى بعينه وجهًا مختلفًا.

فيلاليثس: أنت على حق، يا عزيزي!(107)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

الإيمان والمعرفة

ليس من شأن الفلسفة ـ بوصفها علمًا ـ أن تهتم بأي وجه كان بما يجب أو يمكن المرء أن يعتقده (geglaubt)، بل بما بإمكانه أن يعرفه (wissen) فحسب. والآن.. إن كان على هذا أن يكون أيضًا شيئًا يختلف اختلافًا كليًا عما ينبغي للمرء أن يؤمن به، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون نقيصة حتى بالنسبة للإيمان، لأن الإيمان يعرف ما لا يمكن للمرء أن يعرفه. فإن كان بإمكان المرء أن يعرفه، فـ لَبدا الإيمان من ثمة سخيفًا وعديم الجدوى، ولكان كما لو أننا وضعنا معتقدًا إيمانيًا بإزاء الرياضيات.

ومن ناحية أخرى، يمكن أن يعترض علينا بأن الإيمان، على الرغم من أن بإمكانه دائمًا أن يعرف أكثر وأكثر بما لا يقاس من الفلسفة، غير أنه لا يمكنه أن يعرف شيئًا يتعارض ويتناقض مع نتائجه، ذلك أن المعرفة مبنية من مادة أصلد وأمتن من الإيمان، بحيث متى اصطدم الإيمان والمعرفة، انكسر الإيمان.

ومهما يكن من أمر، فكلاهما يمثل شيئين مختلفين في الأساس، ومن أجل مصلحتهما المشتركة، يجب أن يظل كل منهما منفصلًا فصلًا باتًا عن الآخر، وبذلك يشق كل منهما طريقه الخاص حتى دون أن ينتبه إلى وجود الآخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

الوحي

تأتي أجيال من البشر إلى الوجود وتختفي أجيال أخرى في تعاقب سريع، فيما يرقص الأفراد بين فكي الموت بين أحضان الخوف والشقاء والألم. ويتساءلون بلا كلل ولا نصب عن سبب شقوتهم [في هذه الدنيا]، وعن معنى كل هذه المهزلة التراجيدية ـ الكوميدية، ويتوجهون إلى السماء مبتهلين طلبًا للجواب. لكن السماء تظل صامتة، وفي مقابل ذلك يخرج إلينا الكهنة حاملين معهم الوحي.(108)

ومن بين التمظهرات الكثيرة القاسية والباعثة على الأسى للقدر الإنساني، فأدناها أننا نوجد لكننا لا ندري من أين جئنا، ولا مصيرنا، ولا حتى علامَ وجدنا!. فكائنًا من كان وقد استبد به هذا الشعور وتغلغل في قرارته، فلن يمنع نفسه إلا بجهد جهيد كيلا يساوره شيء من الحنق والسخط تجاه أولئك الذين يزعمون استفرادهم بامتلاك معرفة خاصة بشأن الأمر، والتي يسعون إلى مشاركتنا إياها تحت مسمى الوحي.

أود أن أسدي النصح لسادة الوحي الموقرين بألّا يفيضوا في الحديث طويلًا عن الوحي في أيامنا هذه، أو بعبارة أخرى: قد يحدث في يوم من هذه الأيام أن يكشف لهم ما هو الوحي في حقيقة الأمر.(109)

لكن.. وحده من يزال مجرد طفل كبير هو من يمكنه أن يصدق ـ عن جد ـ أن كائنات لما تكن بشرًا قط قد بذلت جنسنا إشارات وإضاءات عن وجودنا وعن الغاية من هذا الوجود، كما هو الشأن بوجود العالم والغاية منه. ليس ثمة من وحي آخر غير أفكار الحكماء، ولو أن تلك الأفكار، على غرار كل ما هو إنساني، عرضة للخطأ، ومتسترة في أغلب الظن وراء حكايات رمزية وأساطير خيالية، فأخذت من ثم اسم أديان.

وعلى هذا، فليس من عواقب تنزل بنا إن عاش امرؤ أو مات وهو يثق بأفكاره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاصة أو بأفكار غيره، طالما أنها دائمًا مجرد أفكار إنسانية منحها ثقته، ومجرد انطباعات إنسانية. ومع ذلك، فإن ضعف ووهن الكائنات البشرية بصفة عامة يدفعها إلى أن تفضل الوثوق بالأحرى بالذين يدّعون امتلاك مصادر فوق طبيعية، بدل الوثوق في عقولهم أنفسهم.

ولكن.. الآن لو تأملنا التفاوت الفكري الكبير للغاية بين إنسان وآخر، لربما، يمكن أن تظهر أفكار أحدهما بمعنى من المعاني على أنها وحي في مقادير الآخر.

ومن ناحية أخرى، أن السر الجوهري والدهاء الأزلي لجميع الكهنة، في كل أرباض الأرض وفي جميع العصور والأزمنة، سواء أكانوا براهمانيين، أو محمديين، أو بوذيين، أو مسيحيين، يجري كما يلي: لقد أدركوا بشكل صحيح واستوعبوا جيدًا القوة العظيمة والطابع المتجذر للحاجة الميتافيزيقية للإنسان غير القابل للاستئصال، فهم يزعمون الآن امتلاك وسائل إشباعها، لأن من المفترض أن كلمة هذا اللغز العظيم الأخيرة كانت وصلت إليهم مباشرة عبر سبل خارقة. بمجرد ما يقنعون الناس بذلك، يمكنهم توجيههم واقتيادهم والتحكم فيهم كما يطيب لهم.

لذلك، فإن الحكام الدهاة يتحالفون معهم (أي الكهنة).. في حين أن الآخرين سيسلمون لهم القياد ويكونون طوع بنانهم. ولكن إذا اعتلى فيلسوف العرش، وهذا من أندر الاستثناءات كافة، فإذ ذاك تضطرم شرارة البلبال الأكثر إرباكًا وتشويشًا على الملهاة بأكملها.(110)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابع

عن المسيحية

لكي نحكم على المسيحية بإنصاف، ينبغي أن يأخذ المرء في الحسبان ما كان قبلها وما أتت لتحل محله. فأول ما كان الوثنية اليونانية ـ الرومانية، فبوصفها ميتافيزيقا شعبية، بدت الوثنية اليونانية ـ الرومانية، كأنها ظاهرة تافهة للغاية من دون عقائد محددة وحقيقية، وبدون أخلاق معبر عنها بصورة لا لبس فيها. أجل.. فقد كانت بكرًا من نزعة أخلاقية حقيقية ومن غير وثائق مقدسة، بحيث لا تكاد تستحق أن تدعى بالدين، وإنما هي ـ في المقابل ـ مجرد لعب تفتق عنه خيال وعمل من إبداع شعراء توسلوا الحكايات الخرافية الشعبية.

أو أنها في أحسن الأحوال تجسيد صريح للقوى الطبيعية. فلا يتخيل المرء أن الناس قد حملوا هذا الدين الصبياني حقًا وفعلًا على محمل الجد، ولكن عديدًا من المقاطع والصفحات في مؤلفات القدماء تنهض شاهدة على ذلك، وبخاصة الكتاب الأول لفاليريوس ماكسيموس، (111) ناهيك أيضًا عن عدد من المقاطع لدى هيرودوتوس. ومن بين تلك المقاطع، سأكتفي بالإشارة إلى الفصل الخامس والستين من الكتاب الأخير، (112) أين عبّر عن وجهة نظره الخاصة وحيث تحدث مثل حيزبون شيباء.(113) ومن طبيعة الحال، فهذه الجدية قد استحالت عدمًا في الأزمنة المتأخرة خاصة مع ازدهار الفلسفة. الأمر الذي أفسح الطريق للمسيحية كيما تنسخ دين الدولة ذاك وتحل محله، على الرغم من ضروب الدعم الخارجي.

ومع ذلك، لم يؤخذ هذا الدين على محمل الجد، حتى في أزهى حقب اليونان التاريخية، ولم يحفل به بنفس الجدية التي ستستقبل بها المسيحية في الأزمنة الحديثة، أو البوذية والبراهمانية والعقيدة المحمدية في آسيا. وعلى ذلك فتعدد الآلهة لدى القدامى كان شيئًا مختلفًا كل الاختلاف عن مجرد جمع يسير لتوحيد الإله، وهذا ما تعكسه بصورة شافية كافية مسرحية الضفادع لأريستوفانس، التي يظهر فيها ديونيسيوس مثل غبي مخدوع ورعديد جبان مثير للرثاء وللسخرية.

والحال أن المسرحية لعبت علنًا في يوم عيده، ديونيسيا.(114)

الشيء الثاني الذي كان على المسيحية أن تزيحه من طريقها هو اليهودية، التي أسمت العقيدة المسيحية عقيدتها الخرقاء وعبّرت عنها رمزيًا ضمنًا في صميمها. إن المسيحية بعامة هي من طبيعة رمزية مجازية محضة، لأن ما يتسمى بالرمز والمجاز في أمور الدنيا، يتسمى باللغز وسر الأسرار في الأديان. على المرء ألا يجادل بأن المسيحية أسمى وأرقى شأنًا بما لا يقاس من ذينك الدينين الأولين معًا، ليس في ميدان **الأخلاق** وحسب، حيث إن تعاليم **المحبة** (caritas)، (115) والصبر، ومحبة الأعداء، والتواضع، وإنكار إرادة الفرد الخاصة من مشمولاتها الحصرية، في الغرب طبعًا.

ولكن فيما يتعلق **بالدوغما** (أمور العقيدة) أيضًا. ولكن، أي شيء ينفع الحشود الغفيرة، العاجزة أيما عجز عن الفهم المباشر للحقيقة.. أفضل من قصة رمزية بديعة تكفي كل الكفاية كدليل هادٍ للحياة العملية وملاذ آمن للسلوى والعزاء والأمل؟.. فخلطة صغيرة تتألف من اللامعقولية والسخافات، لهي عنصر ضروري لمثل تلك القصة الرمزية، من حيث إنها تعمل على إظهار الطبيعة الرمزية المجازية للدين.

إن فهم المرء العقيدة المسيحية **بمعناها الحرفي** (sensu proprio)، فإن فولتير سيكون على حق. أما إن تحدثنا عنها ـ في المقابل ـ مجازيًا ورمزيًا، فستكون أسطورة مقدسة. أي: وسيلة تنقل إلى الناس حقائق ليس بمستطاعهم بلوغها بطريقة أخرى غير تلك الطريقة. ويسعنا مقارنتها بالزخارف العربية لرفائيل، وكذلك تلك التي أبدعتها يدا رانج (Runge)، تلك الزخارف التي تصور بوضوح أشياء غير طبيعية ومستحيلة الوجود. ولكن، رغم ذلك ينضح منها معنى عميق.

وحتى إن كانت الكنيسة تؤكد: أن العقل في مسألة العقائد الدينية لا يتمتع بأي أهلية، وأنه أعمى البصيرة ومستهجن، فهذا إن دل على شيء، فإنه يدل في الأساس على أن تلك العقائد هي من طبيعة مجازية ورمزية. ومن ثم لا يمكن الحكم عليها وفقًا للمعيار الذي ينطبق على العقل دون سواه، والذي يأخذ كل شيء **حرفيًا** (sensu proprio).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن السفاسف والسخافات في عقيدة ما، هي على وجه التحديد، آية على ما هو مجازي وأسطوري. على الرغم من أنها ـ كما في الحالة الحالية ـ تنشأ من حقيقة أنه كان لا بد من توحيد ولمّ شمل مثل تلك العقيدتين غير المتجانستين، اللتين هما العهد القديم والعهد الجديد. ولقد أتت هذه القصة الرمزية إلى الوجود بالتدريج على إثر ظروف خارجية وعارضة، من خلال عرضها لتأويل تحت التأثير الهادئ لحقيقة راسخة عميقة الجذور، لم يتم الكشف عنها بعد للوعي المتقد، إلى أن أتمها أوغسطين الذي نفذ إلى معناها الأعمق، وكان بوسعه من ثم أن يدركها ككل نسقي ويسد ما يعتورها من ثغرات وثلم.

وبناء عليه، فإن العقيدة الأوغسطينية وحدها ـ التي عضدها لوثر أيضًا ـ هي المسيحية الكاملة، وليس المسيحية الأولية (Urchristenthum) كما يعتقد ذلك البروتستانت في أيامنا، الذين ينظرون إلى **«الوحي» حرفيًا** (Offenbarung sensu proprio) ويقصرونه من ثم على فرد واحد، فليست البذرة هي ما يؤكل وإنما الثمرة.

لكن تظل النقطة السوداء في الأديان كافة، أنها لا يمكن أن تكون مجازية ورمزية إلا خفية وسرًا وليس جهارًا وعلنًا، وبالتالي كان لزامًا عليها أن تعرض تعاليمها بمنتهى الجدية والمهابة كما لو أنها صحيحة **بالمعنى الحرفي للكلمة** (sensu proprio)، وكما لو أنها شيء يستتبع خداعًا مستمرًا وعلة أو آفة فادحة الأثر بسبب ما تنطوي عليه من السخافات في الأساس.

وثالثة الأثافي أن يتبين مع الوقت أنها لم تكن صحيحة **بالمعنى الحرفي للكلمة** (sensu proprio)، فتزول من ثم وتدول. وفي هذا الصدد، يحسن بنا أن نعترف في الحال بطبيعتها المجازية، لكن كيف نحشر في أذهان الناس أن شيئًا يمكن أن يكون صحيحًا وخاطئًا في الوقت ذاته؟. والآن بما أن كل الأديان ـ بغير استثناء ـ بهذا القدر أو ذاك، ذات طبيعة كتلك الطبيعة وتتشكل بتلك الطريقة، فعلينا أن نقر بأن السخافة هي ـ بمعنى من المعاني ـ صالحة ومناسبة للجنس البشري. أجل.. إنها عنصر حيوي والخداع أو التضليل أمر لا غنى عنه بالنسبة لنا، كما يتأكد ذلك مرارًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتكرارًا من خلال ظواهر أخرى.

ولدينا مثال ودليل إثبات على منبع السخافة والعبثية سالفة الذكر، والتي تنشأ من توليف كل من العهد القديم والعهد الجديد، من بين أمور أخرى، في لحمة العقيدة المسيحية، عقيدة القدر والنعمة الإلهيين، التي استنبتها أوغسطينوس، هذا النجم الهادي الذي اهتدى بنوره لوثر من بعد.

وعلى ذلك، كان لأحدهما امتياز على الآخر فيما يتعلق بالنعمة الإلهية، هذه الأخيرة التي ترقى من ثم إلى امتياز يكتسب منذ الميلاد ويستجلب إلى العالم جاهزًا، وهذا في مسألة هي أم المسائل جميعها على الإطلاق. لكن منبع الوقاحة والسخافة في كل هذا يتمثل ببساطة في افتراض العهد القديم المسبق الذي يقول إن الإنسان صنيعة إرادة أجنبية خلقته من عدم.

وعلى الضد من ذلك، تكتسي هذه المسألة معنى مختلفًا مطلق الاختلاف وأقرب إلى المعقولية والحس السليم ـ بحسبان الفكرة القائلة بأن المزايا الأخلاقية الحقيقية فطرية حقًا ـ في ضوء الافتراض البراهماني والبوذي **لتناسخ الأرواح (metempsychosis)**. والذي وفقًا له، يكون لشخص ما، امتياز على شخص آخر عند الميلاد، ومن ثم فإن ما يكتسبه من حياة سابقة، ليس عطية أو هبة نعمة أجنبية، بل ثمرة أفعاله وما جنت يداه في ذلك العالم الآخر.

ويتصل كذلك بعقيدة أوغسطينوس. هذه الفكرة القائلة إن من بين الحشود الفاسدة من الجنس البشري، التي هي وقيعة لعنة أبدية، وفقط عدد يسير منهم كانوا صالحين ومن ثم أصبحوا منعمين ومباركين بفضل ومنة من النعمة الإلهية وما قدرته الأقدار. بينما كان جزاء الباقي الهلاك، أي العذاب الأبدي في جهنم.(116) وإن أخذت **حرفيا (sensu proprio)**، فالعقيدة تصير عندئذ فظيعة ومثيرة للاشمئزاز، لأنها لا تكتفي فقط بطلب الكفارة على اللمم والزلل بالعذاب الأبدي، أو حتى على عدم الإيمان، من حياة لا تكاد تزيد عن عشرين عامًا، بموجب عقابها في الجحيم الأبدي.

ولكن علاوة على ذلك فهذه اللعنة الأقرب لأن تكون عامة هي في الواقع مفعول

للخطيئة الأصلية، ومن ثم فهي النتيجة الحتمية لسقطة الإنسان الأولى. لكن، كان يجب أن يكون هذا متوقعًا على أي حال من قبل من أخفق في أول الأمر في خلق كائنات بشرية أفضل من هذه الكائنات، والذي أعد لهم فيما بعد فخاخًا ونصب لهم حبائل وأشراكًا.. كان عليه أن يحط في رأسه أنهم سينتهون إلى الوقوع فيها، لأن كل شيء بلا استثناء من خلقه وأن لا خافية تخفى عليه.

وبهذا الاستدلال، استدعى إلى الوجود من العدم جنسًا واهنًا ضعيفًا ونزاعًا إلى الخطيئة لكي يسلمه بعد ذلك لعذاب أبدي لا ينتهي.(117)

وأدهى من ذلك وأفظع أخيرًا، أن الله الذي يأمر بالحلم والعفو عن كل ذنب وخطيئة إلى حد الأمر بمحبة الأعداء، فهو نفسه لا يفي بهذه الأوامر والنواهي، بل ينقاد على العكس من ذلك إلى فعل نقيضها، لأن العقاب الذي يترتب على ذلك، يأتي بعدما يسبق السيف العذل، حينما يفوت الأوان وينتهي كل شيء إلى غير رجعة، فلا يمكن لا أن يهذب ولا أن يقوم ولا أن يرهب.

وبالتالي فلن يكون ذلك القصاص سوى مجرد انتقام.(118) لكن، منظورًا إليه بهذا النحو، يبدو بالفعل أن الجنس برمته مشروطًا على نحو خاص ومنذورًا بداهة للعذاب واللعنة الأبدية.. باستثناء أولئك القلة القليلة من المخلصين. لا يفهم المرء بناء على أي سبب، بمشيئة من النعمة الإلهية.(119) ولكن إذا وضعنا كل هذا جانبًا، فيتبين كما لو أن الرب الخير قد خلق العالم ليستأثر به الشيطان، وفي هذه الحالة كان من الأولى له لو ترك الأشياء على حالها.

هذه هي الحالة مع العقائد حين تؤخذ **بمعناها الحرفي** (sensu proprio)، فيما لو فهمت **مجازيًا** (sensu allegorico). في المقابل.. كل هذا يحتمل تفسيرًا مناسبًا. لكن أولًا وقبل كل شيء، كما أسلفت القول آنفًا، الجانب العبثي، بل والمقرف الشنيع في تلك العقيدة، فليس سوى نتيجة الإيمان بالله اليهودي بخلقه من عدم وما دار في فلك ذلك، من إنكار متناقض فعلًا وحقًا وصادم (anstößigen)(120) لعقيدة تناسخ الأرواح، وهي عقيدة بسبب كونها طبيعية وبديهية وواضحة بذاتها

على نحو من الأنحاء، فذلك أدى بالتبعية إلى تبنيها في كل الأزمنة والأوقات من قبل الجنس البشري أجمع تقريبًا، ما عدا اليهود.

ومن أجل استئصال شأفة الشر المستطير الناجم عن هذه الحالة وتلطيف الجانب المنفر الشنيع من العقيدة، قام البابا غريغوري الأول في القرن السادس الميلادي بإرساء لبنات عقيدة المطهر (purgatory) بحكمة لا نظير لها، والتي سبقه إليها أوريجانوس بالأساس (انظر بايل، (121) مادة أوريجانوس، الملاحظة ب)، (122) دامجًا إياها رسميًا في تعاليم الكنيسة.

ونتيجة لذلك، قد خفف من شناعة الأمر بشكل كبير وإلى حد ما فقد حل المطهر محل التناسخ، طالما أن أحدهما، شأنه شأن الآخر، يتيح عملية تطهير. ولنفس الغرض وضعت أيضًا عقيدة **الأبوكاتستاسيس [الاستعادة الكلية]** (ἀποκατάστασις πάντων)، (123) التي من خلالها، فحتى أعتى المذنبين، جميعهم بلا استثناء، يعودون إلى سيرتهم الأولى (in integrum أي حالتهم الأولى من الكمال)، حينما يسدل الستار عن الفصل الأخير من الكوميديا الكونية.

وحدهم البروتستانت بإيمانهم القاطع في الكتاب المقدس ما يلبثون يعتقدون بالعقاب الأبدي في الجحيم. وفي ذلك خير عظيم لهم، قد يقول من كان في نفسه بذرة من مكر: فالشيء الوحيد الذي فيه عزاء هو أنهم أنفسهم لن يعتقدوا حقًا في ذلك، لكنهم يهملون المسألة في الوقت الراهن قائلين في صميم قلوبهم: حسنًا، لربما سوف لن يكون الأمر بمثل هذا السوء.

وكنتيجة لذهنه المتصلب والقطعي الجازم (systematischen)، وبسبب من دوغمائيته المتزمتة للمسيحية، وتحديده المتعنت للتعاليم التي ألمح إليها الكتاب المقدس وحده والقائمة على أساس أجرد ليس ذي زرع، أضفى القديس أوغسطينوس على تلك التعاليم حدودًا قاسية جدًا وعلى المسيحية نموذجًا (Ausführung) فظًا غليظًا. الأمر الذي بات اليوم يسيء إلينا ويهيننا، والذي لهذا السبب تصدت له العقلانية في عصرنا، تمامًا كما فعلت البلاجيانية في عصرها.

ففي مدينة الله(124) (الكتاب الثالث عشر، الفصل الواحد والعشرون)، على سبيل المثال، الأمر إن أخذ **بمعناه المجرد (in abstracto)**، فهو ينبسط في الواقع على النحو التالي: **إله خلق كائنًا من لا شيء**، ويوكل إليه أوامر ونواه ووصايا ومحظورات، ولأن هذه الأخيرة لا تطاع في أرجح الظن، ينزل به إلى أبد الآبدين صنوف العذاب التي ما خطرت على خيال بشر. لأنه.. لهذا الغرض ربط برباط لا ينفصم، كل من الجسد والروح (مدينة الله، الكتاب الثالث عشر، الفصل الثاني، الفصل الحادي عشر، في نهايته (in fine)، والفصل الرابع والعشرين، في نهايته (in fine))، على نحو لا يفضي عذاب هذا الكائن أبدًا إلى القضاء عليه من طريق التحلل ولتمكنه من ثم من أن يفلت منه (أي العذاب)، بل بالأحرى أن يعيش ليشقى إلى الأبد في الإصر الأبدي.. هذا البئيس الشقي الذي وجد من لا شيء، الذي كان له على الأقل الحق في أن يبقى في عدمه الأصلي، **عزلته (retraite)** الأخيرة، التي ما كانت البتة لتكون أسوأ حالًا، والتي ينبغي قبل أي شيء أن تبقى مصونة ومؤمنة له قانونيًا كملكيته الموروثة. ليس في وسعي إلا أن أتعاطف معه على الأقل.

ولكن إن أضاف المرء إلى هذا وأخذ باقي تعاليم أوغسطينس، ولا سيما أن كل هذا ليس وقفًا في الحقيقة على ما يفعله الشخص أو يغفل فعله، وإنما كان قد تقرر مسبقًا بمشيئة واختيار النعمة الإلهية.. عندئذ لا يدري المرء حقًا حتى ماذا يقول. ولا ريب أن عقلانيينا رفيعي التكوين والثقافة (hochgebildeten) سيقولون في سريرتهم: «**لكن كل هذا ليس صحيحًا وليس سوى مجرد فزاعة (Popanz)، وفي المقابل، سوف نرتقي بأنفسنا دائمًا إلى مستويات أعلى فأعلى من الكمال، في تقدم حثيث ومستمر، من مستوى إلى آخر**».

واحسرتاه! إننا لم نبدأ في زمن أبكر، لأننا كنا لنكون في أعلى عليين بالفعل. ولكن ارتباكنا وتحيرنا أمام مثل هذه الأقوال والتصريحات، يزداد كذلك أكثر حين نصغي إلى صوت المهرطق الملعون والفاجر الأثيم جول سيزار فانينوس (Jul. Caes. Vaninus) الذي قضى حرقًا: «**إن كان الله لا يريد أن يكون في العالم أبشع الأعمال وأكثرها دناءة وخسة، فقد كان عليه بلا ريب أن يجلي الأعمال الشائنة عن بكرة أبيها من أطراف العالم بإشارة بسيطة من منه. فمن منا يجسر على أن يقف في وجه**

الإرادة الإلهية؟!.. كيف يذهب المرء إلى الظن أن الجرائم والذنوب يمكن ترتكب ضدًا على إرادة الله، فيما هو في النهاية من وهب القوة والقدرة للمجرمين والمذنبين حين يقترفون خطيئة من الخطايا؟!.. ولكن إن أذنب إنسان ما من دون مشيئة من الله، فإن الله أدنى وأضعف من الإنسان الذي عارضه ويقوى على ذلك. من هنا نستنتج أن الله هو من يريد أن يكون العالم كما هو، لأنه إن كان يريد عالمًا أفضل، فسيكون لديه من ثم أفضل العوالم.»(125) (مسرح العالم، التمرين 16، الصفحة 104). وفي الواقع، فقد سبق وقال قبل ذلك في الصفحة 103:

«إن كان الله يريد ذنوبًا أو خطايا، فهو أول من يأتيها، وحتى إن كان لا يريدها، فإنها ترتكب مع ذلك. وبالنتيجة يمكن للمرء أن يقول عنه إما إنه قصير النظر أو أنه عاجز أو أنه قاسٍ، ما دام أنه لا يعرف، أو لا يقدر، أو ينكث عهوده وينقض نذوره.»(126)

وهنا يتضح السبب وراء تمسكنا **بصلف وعناد** (mordicus)، إلى أيامنا هذه، بدوغما حرية الإرادة، على الرغم من أن كل المفكرين الجادين والصادقين من هوبز إليّ أنا، قد أطرحوها جانبًا باعتبارها عقيدة سخيفة وغير معقولة، كما قد يتبين ذلك في مقالتي **في حرية الإرادة** التي نالت شرف التتويج. ولا مماحكة أنه كان من الأهون حرق فانيني بدلًا من دحضه فكريًا ونقض ادعاءاته، ولهذا، فبعد أن بدأوا بقطع لسانه، اختاروا الحل الأول. لا يزال الحل الثاني مشاعًا أمام الجميع، وفي مقدور أي كان أن ينبري للأمر، ولكن ليس بواسطة الثرثرة الفارغة، وإنما جديًا، على صهوة الأفكار.(127)

إن التصور الأوغسطيني، الصحيح في حد ذاته، عن العدد الكبير من المذنبين والثلة الأقل من الأحقاء بالنعيم الأبدي نلفيه أيضًا في البراهمانية والبوذية، ولكن بسبب أنه جاء فيها نتيجة لتناسخ الأرواح، فهو لا يسبب أية إساءة. وبالفعل، ففي الأولى: (البراهمانية) ينعم عدد قليل **بالخلاص النهائي** (final emancipation)، (128) وفي الثانية: **بالنرفانا** (وكلاهما مكافئ لنعيمنا الأبدي)، غير أنهم، لا يتمتعون بأي امتياز خاص، وإنما يأتون إلى الحياة الدنيا بميزات ومؤهلات سبق وكانت لهم

في الحياة السابقة، وها هم الآن يحثون الخطى على نفس الدرب.

لكن البقية المتبقية من الآخرين لم يقذف بهم في قعر الجحيم، ليتلظوا بناره، وإنما بعثوا فقط إلى العوالم التي تناسب أفعالهم وتصرفاتهم. وعليه، فمن يسأل معلمي هذه الديانات أين وماذا أصبح الآن كل أولئك الذين لم ينالوا الخلاص، فلن يسمع من أفواههم إلا ما يأتي: **«انظر من حواليك، إنهم هنا والآن، فهذه أرض لهوهم ولعبهم، إنها السمسارا (Samsara)، أي عالم الشهوة والرغبة، والولادة، والألم، والشيخوخة، والمرض والموت.»** ومن ناحية أخرى، إن فهمنا العقيدة الأوغسطينية قيد النظر **بالمعنى المجازي** (sensu allegorico)، بعددها اليسير من المختارين وسوادها العظيم من المطرودين من رحمة الله إلى الأبد، من أجل تأويلها بمعنى فلسفتنا، نتبين أنها تتوافق مع حقيقة أن عددًا قليلًا بالفعل يصل إلى نفي الإرادة، ومن ثم إلى الخلاص من هذا العالم (وعلى ذات المنوال لا يبلغ النرفانا إلا عددًا قليلًا من البوذيين).

وفي المقابل، فما تفترضه العقيدة كلعنة أبدية، ليس إلا عالمنا هذا، الذي على مذبحه يبذل أولئك المتاعيس مثل أكباش الفداء. إن هذا العالم سيء بما يكفي، إنه مطهر، إنه جحيم، وحتى الشياطين تعبث فيها فسادًا. حسبك أن تنظر إلى ما يلحقه الناس بالناس بين الفينة والأخرى، وبأي تباريح مبتدعة وفنون تعذيب ينكل الناس ببعضهم البعض حتى الموت. ولتتساءل من ثم إن كانت الشياطين ستقدم على أفدح وأجسم من ذلك. وبالمثل، فمقامنا في هذا العالم أبدي أيضًا بالنسبة إلى جميع أولئك الذين، من دون أن يغيروا دينهم، يستمرون في تأكيد وإثبات إرادة الحياة.(129)

لكن في الحقيقة، إذا ابتدرني آسيوي رفيع المستوى بالسؤال عما هي أوروبا، لوجب عليّ أن أجيبه على الفور: إنها ذلك الطرف من المعمور المسكون حد الهوس بالوهم الذي لم يسمع بمثله القائل بأن ولادة الإنسان كانت بدايته المطلقة وبأنه نشأ من العدم.

فأساسًا وبصرف النظر عن ميثولوجياتهما المشتركة، أن سمسارا ونرفانا بوذا متطابقان مع **مدينتي** (civitates) أوغسطين اللتين تؤلفان عالمنا، **المدينة الأرضية**

(civitas terena) والمدينة السماوية (civitas coelestis)، على نحو ما يصورهما في سفره مدينة الله (De civitate dei)، وبالتحديد في الكتاب الرابع عشر، الفصل الرابع والفصل الأخير (et ultim.)، والكتاب الخامس عشر، الفصل الأول والفصل الحادي والعشرين، والكتاب الثامن عشر، في نهايته (in fine)، والكتاب الحادي والعشرين، الفصل الأول.(130)

في **المسيحية**، يعد **الشيطان** الكائن الأكثر ضرورة كثقل يكافئ خيرية الله المطلقة وعلمه الكلي وقدرته الكلية، التي معها من المستحيل أن نتنبأ بمصدر الشرور المتفشية كالفطر في العالم لو لم يكن الشيطان هنا ليحملها على كاهله. ولذلك، فمنذ أن أزال العقلانيون الشيطان من المشهد، استفحل الضرر الناجم عن الجانب الآخر شيئًا فشيئًا وأصبح محسوسًا أكثر.

لكن هذا كان متوقعًا، وقد توقعه الأورثودوكس بالفعل. لأنه لا يمكن للمرء أن يزيل لبنة من إحدى الأبنية من غير أن يعرض كل الصرح للخطر. وهذا أيضًا يشفع بالتأكيد ما قد أثبت في موضع آخر، أي أن يهوه ما هو إلا تحول لأرموزد (Ormuzd) وأن الشيطان هو عينه أهرمان (Ahriman)، ملازمه الذي لا ينفك عنه، وما أرموزد نفسه إلا تحولًا لإندرا (Indra).(131) ـ (132)

إن المسيحية تنطوي على عيب مخصوص وهي أنها ليست على غرار باقي الأديان، **عقيدة** خالصة، بل إنها أساسًا وبشكل رئيس **تاريخ** (Historie)، أي سلسلة من الأحداث، ومجموعة من الوقائع، ومن الأعمال والمكابدات التي قاستها كائنات فردية، وهذا التاريخ بالتحديد هو ما يشكل الدوغما، التي يؤدي الإيمان بها إلى الخلاص. وبالطبع، تملك الأديان الأخرى، ولا سيما البوذية، ملحقًا تاريخيًا لسيرة مؤسسها، لكن هذا ليس جزءًا من العقيدة نفسها، ولكن يسير جنبًا إلى جنب معها. فعلى سبيل المثال: المقارنة بين اللاليتافيستارا (Lalitavistara)(133) والإنجيل، تبين أن الأول يحوي بين دفتيه سيرة حياة الشاكياموني (حكيم عشيرة الشاكيا)، البوذا في حقبة العالم الحالي، لكن هذا أمر مبتور الصلة بالعقيدة ومختلف تمام الاختلاف عنها، أي: عن البوذية نفسها، ذلك أن سير البوذوات الأولى كانت أيضًا

مختلفة كل الاختلاف، مثلما ستختلف عنها سير البوذوات المستقبلية.

لم تصبح العقيدة هنا بأي حال من الأحوال مشدودة الوشائج بسيرة المؤسس ولا هي مؤسسة على أشخاص ووقائع فردية، بل إنها عقيدة عامة وصالحة بالتكافؤ لكل الأزمنة والعصور. ومن ثم، فاللاليتافيستارا ليس إنجيلًا بالمعنى المسيحي للكلمة، وليس بشارة بواقعة خلاصية، وإنما سيرة ذلك الرجل الذي بين كيف يمكن لأي أحد أن يخلص نفسه بنفسه. ولكن، من هذا الطابع التاريخي للمسيحية يسخر الصينيون من مبشرينا، معتبرين إياهم مجرد رواة حكايات وقصص خيالية.(134)

ثمة عيب آخر يعتري المسيحية؛ يجب ذكره بهذه المناسبة، ولكن حسبي الإشارة إليه دون تفسيره، والذي تتجلى عواقبه المؤسفة(135) كل يوم، وهو أنها قطعت بصورة غير طبيعية حبل قربى الإنسان بعالم الحيوان الذي ينتمي إليه أساسًا، وهي تسعى الآن أن تقبل الإنسان كليًا بمفرده ولذاته، وتنظر إلى الحيوانات كمجرد أشياء. في حين أن البراهمانية والبوذية، الوفيتين للحقيقة، أقرّتا ـ بصورة حازمة ـ القرابة البديهية بين الإنسان والطبيعة بصفة عامة، وبشكل خاص بينه وبين سائر الحيوانات. وتصوره على أن له علاقة وثيقة لا تنفصم بعالم الحيوان من خلال تناسخ الأرواح وغير ذلك.

إن الدور الهام الذي تضطلع به الحيوانات بصفة عامة في البراهمانية والبوذية، قياسًا إلى لاوجودها (Nullität) المطلق في اليهودية ـ المسيحية (Juden - Christenthum) يدين هذه الأخيرة أيما إدانة فيما يتعلق بالكمال، وإن كنا قد تعودنا في أوروبا على رؤية مثل هذه السخافة.(136) ومن أجل التمويه عن ذلك العيب الأساسي، بل من أجل مفاقمته في الواقع، نجد أن هذه الخدعة المثيرة للشفقة والمخزية، والتي سبق لي واستهجنتها في كتابي «المشكلتان الأساسيتان في الأخلاق»، (137) والتي تقوم على تسمية كل الوظائف الطبيعية التي تتقاسمها معنا الحيوانات بكلمات مختلفة تمامًا عن تلك التي تسمى بها عند الإنسان، والتي تثبت أكثر من أي شيء آخر تطابق طبيعتنا مع طبيعتهم، على غرار الأكل، والشرب، والحبل، والولادة، والموت، و[تحلل] الجثة، إلخ.(138) إنها حقًا حيلة دنيئة

وخسيسة.

لكن المنشأ الأول للعيب الأساسي المذكور آنفًا هو الخلق من عدم، الذي على إثره سخُر الخالق في الإصحاح الأول والإصحاح التاسع من سفر التكوين كل الحيوانات للإنسان، ليسود عليها، أي: أن يفعل فيها ما يشاء، كما لو أنها مجرد أشياء ومن غير أن يوصي بحسن معاملتها. وهذا ما يفعله عادة حتى بائع الكلاب حين ينفصل عن الحيوان الذي ربّاه. ولذلك، فهو يجعل من الإنسان في الإصحاح الثاني أول معلم في علم الحيوان، بتكليفه بمسؤولية إطلاق أسماء على الحيوانات التي عليها ـ من ذلك الحين فصاعدًا ـ أن تحملها، وما ذلك مرة أخرى سوى رمز لتبعية تلك العجماوات المطلقة للإنسان، أي لانعدام حقوقهم (Rechtlosigkeit).

رحماك يا نهر الغانج المقدس! يا أم عرقنا! إن لمثل هذه القصص وقع عليّ أشبه بقير اليهود (Judenpech) والتتانة اليهودية الكريهة (feotor judaicus)!. يقع الذنب على وجهة النظر اليهودية التي تعتبر الحيوانات كمجرد شيء وجد حصرًا من أجل الاستعمال البشري.(139) لكن لسوء الحظ، فعواقب ذلك ما زال من الممكن تلمسها حتى في أيامنا هذه، لأنها انتقلت إلى المسيحية، والتي لهذا السبب بالتحديد، علينا أن نتوقف لمرة واحدة عن إجزال المدائح لأخلاقها باعتبارها الأخلاق التي لامست مدارج الكمال.

فالأخلاق المسيحية يلحقها بحق عيب جوهري وجسيم يكمن في أن تعاليمها ومبادئها موقوفة على الإنسان دون سواه، وتهدر حقوق العالم الحيواني بأكمله. وبناء على هذا، فعلى الشرطة من الآن أن تنهض بدور الدين، بهدف حماية الحيوانات من الحشود الفظة خشنة الطبع ومتبلدة الإحساس، الأضل من البهائم والأنعام نفسها. ولأن هذا ليس كافيًا بالضرورة، بدأت تتأسس جمعيات حماية الحيوانات في كل الأنحاء في أوروبا وأميركا هذه الأيام، فيما لن يكون هذا في كل أرجاء آسيا غير المختونة مجرد أمر فائض عن الحاجة في العالم بأسره.

هناك حيث يحمي الدين الحيوانات بما يكفي، بل ويجزل لها الأعمال الخيرية، والتي حسناتها متجلية للعيان، مثلًا في المستشفى الكبير للحيوانات في سورات

Surat، حيث بإمكان المسيحيين والمحمديين واليهود أن يرسلوا حيواناتهم السقيمة إليه، والتي ـ ولو لأسباب وجيهة ومعقولة ـ لا ترد إليهم بعد أن تبل وتشفى. وبالمثل، فحين لا يعول البراهماني أو البوذي مناجيًا **«ربنا العظيم إننا نسبحك ونحمدك»** (Te Deum)، في كل ضربة حظ شخصي حالفته، وفي حال حسن العاقبة والمثاب.

ولكن بدلًا من ذلك، يقصد السوق ويبتاع طيورًا ليحررها من أقفاصها قبالة بوابة المدينة. يمكن مشاهدة هذا مرارًا متكررة في أستراخان، حيث يتلاقى المؤمنون من الأديان كافة، وفي مئة حالة أخرى مشابهة. ومن ناحية أخرى، فلتنظروا إلى القسوة الوحشية التي يعامل بها أوباشنا المسيحيون(140) الحيوانات، وكيف يصفونها من غير أيما سبب على الإطلاق وهو يسخرون منها، أو يشوهونها ويمثلون بجثتها أو يعذبونها وينكلون بها، بل حتى تلك الحيوانات المسكينة التي تعيلهم وتسدي إليهم جليل خدماتها مباشرة، من قبيل أحصنتهم، فهم ينهكونها رهقًا في الكدح في شيخوختها حتى يستخلصوا آخر نقي من عظامها الهزيلة، إلى أن تنفق تحت وقع جلد السوط.

يكاد المرء يصرخ بملء فيه هاتفًا: إن البشر هم شياطين الأرض، والحيوانات هي الأرواح المعذبة.(141) كانت هذه عواقب مشهد التثبيت (- Installations Scene) في جنة الفردوس. لأنه لا سبيل إلى استمالة الغوغاء إلا بالقوة أو الدين. ولكن، هنا تتخلى عنا المسيحية بشكل مخزٍ معيب. سمعت من مصدر موثوق أن مبشرًا بروتستانتيًا (Prediger) حين سألته جمعية من جمعيات حماية الحيوانات أن يكرز موعظة عن صنوف التعذيب التي تنزل بساح هذه الأخيرة. رد قائلًا: إنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، رغم أنه يريد ذلك بملء إرادته، لأن الدين لا يقدم له أي سند ليقوم بذلك.

في لحظة صدق صدح الرجل بالحقيقة. في بيان بتاريخ 27 نونبر 1852 صادر عن **جمعية حماية الحيوانات بميونيخ، ذات الشأن الخطير والقيمة المعتبرة**، يسعى بأمثل النوايا إلى غرس «المبادئ والوصايا التي تعظ بالرفق بالعالم الحيواني»، كما

وردت في الكتاب المقدس، ومستشهدا بـ: سفر الأمثال الإصحاح 12، العدد 10، سفر الجامعة، الإصحاح 7، العدد 24، المزامير 147: 9، وسفر أيوب، الإصحاح 39، العدد 41، وإنجيل متى، الإصحاح 10، العدد 29.

لكن هذا ليس سوى **كذبة ورعة (pia fraus)** مستندة على عدم تحققنا من هذه الاستشهادات. فوحده الاستشهاد الأول المعروف جيدًا يقول شيئًا ذا صلة بالموضوع، وإن كان ضعيفًا، بينما الاستشهادات الأخرى وإن تحدثت عن الحيوانات فهي لا تتحدث عن ضرورة الرفق بها. فما الذي يقوله ذلك الاستشهاد؟.. **«الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ.»**(142)

«يراعي !».. يا لها من عبارة! تأخذ المرء رحمة بمذنب، وآثمًا أتى مظلمة من المظالم أو قارف شرًا، ولكن ليس بحيوان وفي وبريء، الذي طالما أسدى جليل الخدمات لسيده والتي لا ينال مقابلها إلا علفًا لا يسمن ولا يغني من جوع. «يراعي»! لا ندين بالرحمة للحيوانات وإنما بالعدل، وسنبقى مدينين لها على أرجح الظن.

في أوروبا، هذا الصقع من العالم الذي عطنت فيه **النتانة اليهودية (foetor judaicus)**، (143) التي في أعينها تبدو هذه الحقيقة البديهية والبسيطة: **«الحيوان هو كالإنسان من حيث الماهية»**، مفارقة صادمة.(144)* وبالتالي، فإن حماية الحيوانات آل إلى الجمعيات التي أسست لهذا الغرض وندب إلى الشرطة، لكن كليهما غير قادرين على التصدي لهذه الوحشية (Ruchlosigkeit) العامة للغوغاء، ما دام أننا هنا إزاء كائنات لا تستطيع أن تجأر بالشكوى، وما دام أنه من بين منة فعل وحشي منكر لا يعاقب من بينها أو يكاد إلا فعل واحد في حقيقة الأمر، خاصة أن العقوبات غير زجرية ومتساهلة للغاية.

ومؤخرًا في إنجلترا بات يعاقب الجناة بالجلد، وهو الأمر الذي ما يبدو لي مناسبًا تمامًا. لكن ماذا يجب أن ينتظر المرء من الدهماء حينما يكون ثمة علماء وحتى علماء حيوان، الذين عوض أن يقروا صراحة بوحدة وتطابق ما هو ماهوي في الإنسان والحيوان كليهما، وهذا ما يعرفونه خير المعرفة، يكونون في المقابل متعصبين حد التشدد وضيّقي الأفق بما يكفي، ليجادلوا وتأخذهم حمية التعصب

ضد زملائهم الصادقين والعقلاء الذين يضعون البشر في الفئة الحيوانية الملائمة، أو الذين يثبتون لهم بالبرهان التشابه الكبير بين الشمبانزي وإنسان الغاب..(145) لكنه أمر منفر فعلًا أن تجد كاتبًا مسيحي (146)الهوى، وشديد الورع مثل يونغ ـ ستيلينغ (Jung - Stilling) يعقد في كتابه **«مشاهد من مملكة الأرواح»**، المجلد الثاني، المشهد الأول، الصفحة 15، هذه المقارنة [الغبية]:

«وعلى حين غرة، انكمش الهيكل العظمي إلى شكل قزم بشع يدق عن الوصف، تمامًا مثل عنكبوت هائل الحجم عند وضعه في بؤرة عدسة حارقة، فيطفق دمه الذي يشبه الصديد ينز ويغلي في الجذوة المضطرمة». وهكذا، فإن رجل الله هذا كان قد اقترف مثل هذه الشناعات والفظائع، أو كان شاهدًا عليها بعين مطمئنة.. والنتيجة هي ذاتها في هذه الحالة أيضًا.

وفي الواقع، فهو لا يرى فيها ضيرًا لدرجة أنه يخبرنا بها كيفما اتفق وهو مطمئن البال (unbefangen)! تلكم هي آثار الإصحاح الأول من سفر التكوين، وبصفة عامة، مفاعيل التصور اليهودي الكلي للطبيعة. وفي المقابل، فما يهم عند الهندوس والبوذيين هو المهافاكيا (الكلمة العظيمة) **«أنت كذا»** (Tat tvam asi)، التي ينبغي أن تتلى دائمًا على كل حيوان لتذكيرنا بوحدة وتطابق جوهره الداخلي بجوهرنا. الأمر الذي قد يصلح كدليل وموجه لأفعالنا. ارحل من هنا بأكبر ما لك من الأخلاق كمالًا.

لما كنت أدرس بصفتي طالبًا في غوتنغن، تحدث إلينا بلومنباخ (Blumenbach) بجدية بالغة في محاضراته عن الفيزيولوجيا عن أهوال عمليات التشريح، وذكر لنا كم أن مثل هذه الأشياء وحشية وفظيعة.. لذا فلا ضرورة إلى اللجوء إليها، إلا في القليل النادر من الأحيان، وفقط في حالة أبحاث ودراسات عظيمة الأهمية تعود علينا بالنفع والفائدة المباشرة.

ولكن يجب أن تجري تلك التحريات على مرأى ومسمع من الجميع في قاعة المحاضرات الفسيحة، بعد توجيه دعوة حضور عامة إلى كل طلبة الطب، وبناء على ذلك قد تجتنى من التضحية الوحشية على مذبح العلم أكبر جدوى ونفع ممكنين. أما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم ـ من جهة أخرى ـ فكل طبيب دجال يحسب أنه حق له أن يشرب في قاعة التعذيب الحيوانات من كأس الألم، من أجل أن يبت في معضلات يستقر حلها، منذ زمن بعيد في مظانها من الكتب، لكنه لشد كسله وجهالته فهو لا يحشر فيها أنفه ليكب عليها.

لم يعد أطباؤنا يتلقون نفس التكوين والتعليم (Bildung) الكلاسيكي للعصور الدابرة، الذي يمنحهم بعض الحس الإنساني ولمسة من السيماء النبيلة. والآن أصبحوا يلجون حرم الجامعة في أبكر وقت ممكن، حيث أمسى الشيء الوحيد الذي يرغبون في أن يتعلموه أن يضعوا الضمادات والمراهم (Pflasterschmieren)، لكي يعيشوا في رغد ورخاء على المسكونة.

وفي ذلك يبدو أن علماء الأحياء الفرنسيين قد مهدوا الطريق أولًا، وعلماء الأحياء الألمان ضاهوهم في إنزال أفظع العذابات بالحيوانات البريئة، وغالبًا بأعداد كبيرة منها، لغرض أن يفصلوا القول في مسائل نظرية محضة، والتي دائمًا ما تكون مسائل تافهة لا تغني فتيلًا. وسأبرهن الآن على ذلك من خلال زوج من الأمثلة اللذين أثارا بخاصة في نفسي مشاعر التقزز والحنق، على الرغم من أنهما ليسا بتاتًا من الحالات المعزولة وفي ميسورنا تعداد مئات من الأمثلة الشبيهة.

ففي كتابه عن أسباب تشكل العظام(147) (1857)، يبوح لنا البروفيسور [فرانز] لودفيغ فيك(148) (Ludwig Fick) من [جامعة] ماربورغ أنه انتزع يومًا مقل عيون حيوانات حديثة الولادة بهدف التحقق من فرضيته التي مفادها: أن العظام تنمو في داخل التجويف! (انظرCentral - Blatt ليوم 24 أكتوبر 1857).

ويجدر بنا أن نذكر ها هنا على وجه الخصوص بالفعل الشنيع الذي اجترحه البارون إرنست فون بيبرا (Ernst von Bibra) من جامعة نورمبرغ، الذي أتى على ذكره على رؤوس الأشهاد بسذاجة غير مفهومة **«كما لو أنه كان قد أحسن صنعًا»** (tanqual re bene gesta) في **أبحاثه المقارنة حول الدماغ لدى البشر والفقريات**(149) (Mannheim, 1854, pp. 131 ff.). فقد ترك متقصدًا أرنبين ينفقان جوعًا تمامًا كما خطط لذلك من أجل التحقق بطريقة لا طائل منها ولا غناء

فيها. إن كان الموت جوعًا يفضي إلى تغيير في نسب المكونات الكيميائية للدماغ!.. كان هذا من أجل صالح العلم، **أليس كذلك (n'est - ce pas)؟..**

ألا يدور في خلد سادة المشرط والبوتقة أولاء، أنهم بشر في المقام الأول، ثم كيميائيون في المقام الثاني؟.. كيف للمرء أن يغمض له جفن في هدوء وسكينة، بينما يحبس وراء القضبان حيوانات بريئة محرومة من ضرع أمها.. لتتجرع كأس العذاب وتقضي جوعًا ببطء؟!.. ألا يروع هذا أحدًا في منامه؟!..

لكن هل يحدث مثل هذا الأمر في بافاريا، حيث كان، في عهد حكم الأمير أدالبيرت، المستشار المحترم ورفيع الشأن برنر (Perner) مضربًا للمثل في كل ألمانيا في حماية الحيوانات من الوحشية والقسوة؟.. أليس ثمة في نورمبيرغ جمعيات ملحقة بالجمعية النشطة في ميونيخ تعمل على نحو مجد وناجع؟.. وحتى إن كان لا مناص من الفعلة الشنيعة التي أتاها بيبرا، أكان عليها مع ذلك أن تبقى بلا عقاب؟.. فعلى الأقل، إن كان على أحد أن يتعلم أكثر من الكتب مثل السيد فون بيبرا، فينبغي عليه أن يفكر مرتين حتى يغتصب قسرًا الأجوبة النهائية من طريق القسوة، (150) وأن يسوم الطبيعة شديد العذاب سعيًا وراء إغناء معرفته وإثرائها، ولينتزع منها أسرارًا كانت على أرجح الظن لا تخفى على أحد منذ عهد طويل.

من أجل هذه المعرفة، وقبل أي شيء آخر، ثمة مصادر أخرى لا تحصى، كانت لتفي بالغرض، من غير الأيلولة ضرورة إلى تعذيب حيوانات بريئة، لا حول لها ولا قوة، حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة. ما الذي ارتكبه في هذا العالم، حتى يستحق أرنب بريء أن يمسك بخناقه ويقتاد ليدفع إلى الموت البطيء جوعًا؟.. ليس لأي أحد الحق في إجراء عمليات التشريح، إذا لم يكن لديه سابق معرفة بكل ما تقوله الكتب عن موضوع بحثه.

من البيّن الجلي.. أن الأوان قد حان لأن يغلق قوس التصور اليهودي للطبيعة في أوروبا، وعلى الأقل فيما يتعلق بالحيوانات، وأن **الجوهر الأبدي الذي يسكننا كما سائر الحيوانات** يجب أن يعترف به من حيث هو كذلك، وأن تعامل برفق، وباحترام. واعلم أن المسألة خطيرة الشأن وجدية ولا شيء في مستطاعه أن يحط من قدرها، حتى

لو ملأت أوروبا بأسرها بالبيع والمعابد.

على المرء أن يكون متبلد الإحساس وأعمى البصيرة أو مخدرًا (chloroformirt) (151) بالكلية بواسطة **النتانة اليهودية** (foetor judaicus) كي يذهل عن أن **الحيوان** هو جوهريًا وأساسًا نفس ما نحن إياه بالضبط، وأن وجه الفرق يكمن فيما هو عرضي فقط، في العقل، وليس في الجوهر، الذي أعني به الإرادة. إن العالم قطعة من ماكينات أو آلات (Machwerk)، والحيوانات ليست منتجات صناعية سخُرت لاستعمالنا الشخصي.

إن وجهات نظر كهذه ينبغي أن تظل وقفًا على البيع والمعابد وحصرًا على قاعات المحاضرات الفلسفية، التي لا تختلف فيما بينها كثير اختلاف من حيث الجوهر. وفي المقابل، فما انتهينا إليه أعلاه يمنحنا القاعدة التي يتحتم علينا اتباعها في كيفية التعامل الصحيح مع الحيوانات. وأنا أنصح المتعصبين والكهنة بألّا يحتجوا كثيرًا هنا، لأنه في هذه المرة، علاوة على الحقيقة تقف **الأخلاق** هي الأخرى إلى صفنا. (152)

إن أعظم نفع عادت به السكك الحديدية علينا أنها أعفت ملايين خيول الجر من حياة بئيسة.

من المؤكد الذي يؤسف له أن الإنسان الذي نزح نحو الشمال، فأصبح إثر ذلك أبيض البشرة، كان في أمس الحاجة إلى لحوم الحيوانات، بالرغم من أن ثمة بعض **النباتيين** في إنجلترا، ولكن كان من الواجب أن تموت تلك الحيوانات ميتة غير محسوسة تمامًا، بواسطة الكلوروفورم وضربة سريعة خاطفة في المنطقة المميتة، وهذا من طبيعة الحال ليس هذا **«رحمة»** أخذتنا بها أو إشفاقًا عليها كما يقول بذلك العهد القديم، ولكن التزامًا بواجب مطلق تجاه الجوهر الأبدي الذي يسكن الحيوانات كما يسكننا نحن معشر البشر.

فأولًا: علينا أن نخدر بالكلوروفورم جميع الحيوانات التي يراد ذبحها، فهذا قد يكون مسلكًا نبيلًا وتشريفًا لبني البشر، وهنا يستطيع علم الغرب الراقي وأخلاق

الشرق السامقة أن يسيرا منكبًا إلى منكب، ما دام أن البراهمانية والبوذية بعيدتين كل البعد عن قصر تعاليمهما على **«القريب»**، وما دام أنهما تضعان تحت جناح حمايتهما **«جميع الكائنات الحية»**.

على الرغم من ركام الأساطير اليهودية ووعيد وترهيب الكهنة، وحتى في أوروبا، فيجب أن تحظى الحقيقة البديهية بذاتها والمباشرة التي يعقلها كل إنسان لم يحرف عقله وتبلبله الرائحة **اليهودية الكريهة** (foetor judaicis)، في النهاية بالقبول وألّا تبقى طويلًا محجوبة عن الناس. لا سيما أن **الحيوانات هي، أساسًا وجوهريًا، نفس ما نحن إياه تمامًا**، والاختلاف الوحيد يكمن فقط في درجة الذكاء، أي في نشاط الدماغ، الذي يقبل أيضًا فروقًا كبيرة بين أنواع الحيوانات. (153)

وهذا من شأنه أن يؤمن للحيوانات معاملة إنسانية. فحين تتغلغل هذه الحقيقة البسيطة، السامية التي لا يداخلها شك، في نفوس جمهور الناس، فسوف لن تحرم الحيوانات أبدًا من حقوقها ولن تسلم ـ بالتبعة ـ إلى الطباع الغليظة وقسوة كل همجي فظ، وحينذاك فقط سيكون من المستحيل على أي طبيب دجال أن يضع على محك التجريب أية نزوة متهورة من نزوات جهله، فيسوم أعدادًا لا تحصى من الحيوانات أفظع ألوان العذاب، كما يحدث في زمننا الراهن.

ومن الواجب ألّا يغرب عن أذهاننا، والحق يقال، أن الحيوانات في أيامنا عادة ما تخدر بالكلوروفورم مما يجنبها الألم أثناء العملية، وبعدئذ يمكن للموت السريع أن يحررها. بيد أن هذه العمليات الموجهة إلى نشاط الجهاز العصبي وحساسيته، والمتكررة كثيرًا في وقتنا، كانت قد استبعدت بالضرورة، ما دام أنها توقف النشاط الذي يجب ملاحظته بدقة هنا. والأدهى أننا غالبًا ما نقتاد إلى التشريح الحيوان الأنبل أخلاقيًا من بين جميع الحيوانات، أعني الكلب، الذي يمتلك جهازًا عصبيًا متطورًا للغاية،(154) يجعله علاوة على ذلك أكثر استشعارًا للألم.

يجب أن يوضع حد أيضًا لهذه المعاملة الحمقاء التي لا يقبلها ضمير يقظ في أوروبا. من الواجب تنحية التصور اليهودي للعالم الحيواني جانبًا، بسبب لاأخلاقيته. فأي شيء أبده وأوضح من أن الحيوانات، أساسًا وجوهريًا، هي نفس ما نحن إياه؟!..

فأيما امرئ ينبغي أن يكون عديم الإحساس وأعمى البصر والبصيرة حتى لا يدرك ذلك، أو أنه لا يريد أن يرى ذلك، لأن في موازينه أن البقشيش يعني له أكثر من الحقيقة.(155)

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الفصل الخامس

عن التأليهية

مثلما أن تعدد الآلهة هو تشخيص وتجسيد لأشياء وقوى منفردة من الطبيعة، فإن إفراد الإله بالتوحيد هو تشخيص وتجسيد للطبيعة بأسرها.. دفعة واحدة.

لكن إن كان عليّ أن أتمثل في ذهني بأني في حضرة كائن أحد أبتهل إليه مناجيًا: **«يا بارئي! إني لم أكُ شيئًا، وأنت من خلقتني فصرت شيئًا، وصرت أنا»**، وأشفع نجواي حامدًا شاكرًا: **«إني أحمدك وأقدسك على هذه النعمة»**، ـ وأختم بالقول: **«إن كنت لا أصلح لشيء، فالذنب ذنبي وحدي»**. لذلك، عليّ أن أعترف أنه نتيجة دراساتي الفلسفية ومعرفتي بمعتقدات الهند، لم تُعدا رأسي تقوى على تحمل مثل هذه الفكرة. وعلاوة على ذلك، فهذه الفكرة هي نظير ما بسطه لنا كانط في نقد العقل المحض (في القسم الخاص بـ **«حول استحالة برهان كوسمولوجي على وجود الله»**): **«لا يمكن للمرء أن يقاوم الفكرة، ولكن لا أحد في وسعه أن يتحملها أيضًا، إن كائنًا نتصوره في أنفسنا بما هو الأسمى والأعظم من بين الكائنات الممكنة جميعها، يمكن أن يقول ـ إن جاز التعبير ـ لنفسه: أنا من الأزلية إلى الأبدية، وخارجي لا شيء موجود، ما عدا ما يكون بإرادتي: لكن من أين أنا إذًا؟»**. لنقل عرضًا إن هذا السؤال الأخير، الذي لا يحتوي إلا على القليل من القسم المذكور للتو، لم يمنع أساتذة الفلسفة منذ كانط من المطلق، أو بلغة صريحة ما ليس له علة، الموضوع الرئيس الأزلي لكل تفلسفهم. وهذه فكرة حقيقة بهم وأنسب لأغراضهم. وبصفة عامة، فسقم أولئك الأشخاص لا أمل من برئه، ولا داعي لأن أصرخ بجهارة صوتي محذرًا من هدر الوقت في قراءة كتاباتهم والاستماع إلى محاضراتهم.(156)

يستوي أن نسوي صنمًا من الخشب أو الحجر أو المعدن أو نؤلف هيكله من مفاهيم مجردة. تتأبد عبادة الأصنام بمجرد ما يكون لديك كائن شخصي، تبذل له الذبيحة وتضرع إليه، وتحمده وتسبحه بالعشي والإبكار. إن البون ليس وسيعًا، من حيث الجوهر، بين التضحية بنعجاته كقرابين أو بذل ميوله ورغباته. كل طقس وكل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صلاة هي شهادة لا شبهة فيها على عبادة الأوثان والأصنام. ولذلك، ينعقد الإجماع بين الطوائف الصوفية من كل الأديان والملل على تحريم جميع الطقوس على أتباعها. (157)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل السادس

العهد القديم والعهد الجديد

تتصف اليهودية بالواقعية والتفاؤل كسمتين أساسيتين، واللتان ترتبطان وثيق الارتباط فيما بينهما، وتشكلان الشروط الفعلية لعقيدة وجود الله، لأن الأخيرة تنظر إلى العالم المادي على أنه حقيقي بالمطلق وإلى الحياة على أنها هدية سارة وهبت لنا. وعلى العكس من ذلك، فالبراهمانية والبوذية تتصفان بالمثالية والتشاؤم كسمتين أساسيتين، لأنهما لا تسندان إلى العالم إلا وجودًا أشبه بالحلم، وتعتبران الحياة عاقبة لخطايانا وذنوبنا.

ففي عقيدة الزند أفستا (Zendavestalehre)، (158) التي انبثق، كما هو معلوم على نطاق واسع، من رحمها اليهودية، كان العنصر التشاؤمي يمثل بأهريمان. أما في الديانة اليهودية، فقد كان هذا الأخير لا يحظى إلا بوضع تابع، بصفته شيطانًا. والذي، شأنه شأن أهريمان، كان هو خالق الأفاعي والعقارب والهوام. وقد هرعت اليهودية لتوظفه من أجل أن تصحح خطأها الأساسي والتفاؤلي، أعني الخطيئة الأصلية (السقوط من النعمة)، التي تقحم الآن في هذا الدين عنصر التشاؤم الذي يتوافق مع الحقيقة الأكثر ضرورة وبديهية والذي ما يفتأ يمثل فكرتها الأساسية الأصح، حتى إن كانت تنقل في مسار الوجود ما ينبغي أن يمثل على أنه أساسها والسابق عليها في الوجود.

وما يؤكد تأكيدًا ساطعًا أن يهوه هو أورموزد هو سفر عزرا الأول في الترجمة السبعينية،(159) أي الكاهن (24: 6) (ο ιερευς) A، الذي أغفله لوثر: **«وبنى الملك قورش بيتًا للرب في أورشليم، حيث كانت الذبائح تبذل له من خلال النار الأبدية.»** ويثبت أيضًا الكتاب الثاني من المكابيين، الإصحاحات 1 و2 و13 :8، أن دين اليهود هو نفسه دين الفرس، إذ يقال إن اليهود الذين اقتيدوا إلى الأسر في بابل (يهود السبي البابلي)، تحت قيادة نحميا، كانوا قد أخفوا أولًا النار المقدسة في كيس جافٍ، حيث غارت تحت الماء وبعدئذ أذكي لهيبها مرة أخرى بمعجزة،

لنصب نصب عظيم للملك الفارسي. وشأن اليهود، فقد كان الفرس يمقتون من عبادة الأصنام ويشمئزون من أن يقدموا على ذلك، ومن ثم تحريم رسم أو تجسيد الآلهة. (كان [فريدريش] شبيغل، في أعماله عن دين الزند، يعترف بوجود قرابة وثيقة بين دين الزند واليهودية، لكنه كان يرجم بالغيب أن الأول أتى من الثاني). فكما أن يهوه هو تحول لأرموزد فإن التحول المقابل لأهريمان هو الشيطان، أي الخصم، وخاصة لأرموزد. (يترجم لوثر بـ **«الخصم»** (Widersacher) **«شيطان»** الكتاب المقدس في الترجمة السبعينية، انظر على سبيل المثال سفر الملوك الأول، الإصحاح 11 العدد 23).

ويبدو أن الجذور الأولى لعبادة يهوه تعود إلى عهد يوشيا (Josiah)، وكان حيلقيا (Hilkiah) يساعده (في إدارة شؤون مملكته يهوذا)، بمعنى أنها تبنيت من قبل الفرس وأرسيت نهائيًا على يد عزرا بعيد العودة من السبي البابلي. والظاهر أنه حتى في عصر يوشيا وحيلقيا كان دين الطبيعة، والصابئة، وعبادة بعل (Belus)، وعشتار وغير هؤلاء أمرًا شائعًا في يهوذا، بل إلى عهد حكم النبي سليمان. (انظر أيضًا أسفار الملوك عن يوشيا وحيلقيا).*(160)

وبناءً عليه، فلتسمحوا لي أن أشير هنا بغية التأكيد على أصل اليهودية من دين الزند، وفقًا للعهد القديم وسلطات يهودية أخرى، أن الكروبيم هي كائنات لها رأس ثور كان يركب على صهوتها يهوه (المزامير 99:1. وفي الترجمة السبعينية، سفر الملوك الثاني 6:2 و22:11، والسفر الرابع، 19:15: **«أيها الرب إله إسرائيل، الجالس فوق الكروبيم (ο καθημενος επι των Χερουβιμ)»**(161).

ومثل هذه الحيوانات، بنصف ثور، ونصف إنسان، ونصف أسد أيضًا، الشبيهة حد التطابق بوصف حزقيال في الإصحاحين الأول والعاشر، يمكن العثور عليها في المنحوتات في برسيبوليس، ولا سيما بين التماثيل الآشورية في الموصل ونمرود، حتى أنه يوجد في فيينا صخرة منحوتة تصور أورمزد ممتطيًا صهوة أحد تلك الثيران ـ الكرابيم (Cherubim ـ Ochsen). ويمكن الوقوف على تفاصيل ذلك في كتاب الأدب السنوي في فيينا (Wiener Jahrbüchern der Litteratur)، شتنبر

1833، سجلات الأسفار والرحلات إلى بلاد فارس.

وفضلًا عن ذلك، يعرض يوهان غوتلب رود الشرح المفصل عن ذلك الأصل في كتابه الأسطورة المقدسة لشعب الزند (Die heilige Sage des Zendvolks). (162) كل هذا يلقي الضوء الكاشف على شجرة نسب يهوه.

وفي مقابل العهد القديم، فلا بد أن العهد الجديد كان بنحو من الأنحاء من أصل هندي، وتشهد على ذلك أخلاقه الهندية بالكامل التي ترفع الأخلاق إلى درجة الزهد والنسك، ويحمل بصمة من تشاؤمها وأفتارها (Avatar).(163) لكن من خلال هذا الأصل فهو يضع نفسه في تناقض صارخ مع العهد القديم، إذ أن قصة السقوط الأصلي وحدها تشكل الوشيجة الوحيدة الممكنة بين العهدين. لأنه حين ظهرت العقيدة الهندية في الأرض الموعودة، كان لا بد من توحيد معرفة الفساد وبؤس العالم، والحاجة إلى الفداء والخلاص من قبل أفتار، إلى جانب أخلاق إنكار الذات وأعمال التوبة التي تكفر عن الذنب، مع التوحيد اليهودي و**«كل ما عمله رآه حسنًا»** (πάντα καλὰ λίαν [Genesis 1:31]).(164)

وقد حالف المحاولة النجاح بقدر ما أمكنها ذلك، ولا سيما بقدر ما يمكن التوليف بين عقيدتين متنافرتين غاية التنافر بل متعارضتان.

فكما أن معلاق اللبلاب (Epheuranke)، في أمس الحاجة إلى دعامة وشيء ما يلتصق به، فيلتف حول دجران(165) غير مصقول، فيتكيف مع شكله المتشابك الملتوي، ويعيد إنتاجه بدقة ولكن مزينًا بحياته وسحره الخاصين إلى أن يهبنا متعة النظر لا إلى الدجران وإنما إلى مشهد رائق يسر الناظرين.

وهكذا، فعقيدة المسيح، التي نشأت من رحم الحكمة الهندية، لجأت إلى تغطية الجذع الخام القديم لليهودية، الذي كان غير متجانس معها، وما كان عليها أن تستبقيه من شكلها الأساسي تحول بفضل تعاليمها إلى شيء آخر مختلف تمامًا، إلى شيء حقيقي ونابض بالحياة يبدو كأنه شبيه بها، لكنه في واقع الأمر شيء آخر مختلف.

وعليه يمكن القول إن الخالق من العدم الذي قطع صلته بالعالم يتطابق تمام التطابق مع المخلص ومن خلاله مع الإنسانية، حيث يقف كممثل لها، لأنه هو من افتداها بنفسه، كما سقطت في آدم وهي ما تلبث منذ ذاك الحين واقعة في أنيار الخطيئة، والفساد، تتجرح من كأس العذاب والموت. لأن العالم يقدم نفسه على أنه كل هذه الأمور، هنا عندنا كما في ديانة البوذية، وليس على ضوء التفاؤل اليهودي الذي وجد أن **«كل ما عمله كان حسنًا جدًا»** (πάντα καλὰ λίαν).

وفي مقابل ذلك، فقد الشيطان نفسه الآن يدعى **«أمير هذا العالم»** (ὁ ἄρχων τοῦ κόσμου τούτου) **(يوحنا 12:32)**، هذه العبارة التي تعني حرفيًا حاكم العالم. لم يعد العالم غاية بل صار وسيلة، لقد أضحى مملكة المباهج والأفراح الأبدية التي تقع خارج هذا العالم وفيما بعد الموت. إن روح المسيحية تقوم على الإعراض عن هذا العالم وتعليق كل الآمال على عالم أفضل. لكن الطريق إلى مثل ذلك العالم يفتح بالمصالحة، بمعنى الخلاص من هذا العالم ومن طرقه.

ففي الأخلاق، حلت وصية محبة الأعداء محل الحق في القصاص، والوعد (Verheißung) بنسل وذرية وفيرة لا عد لها ولا حصر محل الوعد (Versprechens) بالحياة الأبدية، وابتلاء الأبناء بآثام آبائهم حتى الجيل الرابع، من قبل الروح القدس الذي يلقي بظله على كل صغيرة وكبيرة.

وهكذا، نكتشف أن تعاليم **العهد الجديد** قد نسخت وأعادت تأويل تعاليم العهد القديم، وبذلك فإن ثمة تطابقًا واتفاقًا عميقًا وجوهريًا بينهما وبين أديان الهند القديمة. فكل ما هو صحيح في المسيحية سبق ووجد أيضًا في البراهمانية والبوذية. لكن الرؤية اليهودية للحياة من عدم، (166) لسقط متاع حقير وزائل لا يستطيع أن يشكر ويحمد يهوه بما يكفي من تبتل وتضرع عن وجود سريع الزوال، طافح بالبؤس والشقاء والخوف والقلق والحاجة والعسرة. على المرء أن يبحث عبثًا عن ذلك في الهندوسية والبوذية. ومثل رائحة أزهار تذروها الرياح من المناطق المدارية النائية عبر ذرى الجبال وصفحات الغدران، نشتم في **العهد الجديد** روح الحكمة الهندية.

ومن ناحية أخرى، فلا شيء من العهد القديم يتوافق مع هذا ما عدا السقوط من النعمة، الذي ما لبث أن أضيف إليه على الفور كتصحيح للتأليهية المتفائلة، والذي ألحق فيما بعد العهد الجديد نفسه به باعتباره نقطة الارتكاز (Anhaltspunkt) والسند الوحيد المتاح له.

أما الآن، فمثلما أن المعرفة المعمقة والمحيطة بالأنواع تتطلب معرفة **بجنسها** (genus)، وأن هذا الأخير بدوره لا يمكن معرفته إلا في إطار **أنواعه** (speciebus)، وعلى ذات النحو فالفهم المعمق للمسيحية يقتضي من الديانتين الأخريين المنكرتين للعالم، أي البراهمانية والبوذية، معرفة متماسكة الأركان ودقيقة وسع الإمكان. لأنه، كما أن اللغة السنسكريتية كانت أول من أتاح لنا فهمًا عميقًا بحق باللغات الإغريقية واللاتينية، فعلى ذات المنوال تجعلنا البراهمانية والبوذية نفهم المسيحية.

حتى إنني منيت النفس أملًا بأن يأتي يوم من الأيام ينصرف بحاثة الكتاب المقدس (Bibelforscher) إلى الأديان الهندية، وأن يكونوا قادرين على البرهنة على وجه الشبه وآصرة القرابة بين تلك الأديان والمسيحية من خلال بعض الخصائص والمزايا الخاصة جدًا. في غضون ذلك، أود أن ألفت انتباهكم مبدئيًا إلى ما سيأتي. ففي رسالة يعقوب الرسول (يعقوب 3:6) كانت عبارة ὁ τροχὸς τῆς γενέσεως (تفيد حرفيًا: **«عجلة الأصل»** Rad der Entstehung) كانت دومًا **معضلة للمؤولة والمفسرين** (crux interpretum).

أما في البوذية فعجلة تناسخ الأرواح فكرة واسعة الشيوع. ونقرأ في الصفحة 28 من ترجمة الفوي كوي كي (Foé Koué Ki) التي نهض بها أبيل ريموزات(167) ما يلي «**العجلة هي رمز تناسخ الأرواح، وهي شبيهة بدائرة لا بداية لها ولا نهاية.**»(168) وفي الصفحة 179 تقع أعيننا على: «**العجلة هي شعار مألوف معروف لدى البوذيين، إنها تعبر عن العبور المتتالي للروح في دائرة أنماط الوجود المختلفة.**»(169) وفي الصفحة 282 يقول بوذا نفسه: «**من لم يعرف الحقيقة سوف يصير عبدًا للحياة والموت بسبب دوران العجلة.**»(170)

أما في مدخل إلى تاريخ البوذية، (171) الذي ألفه [أوجين] بورنوف، فنطالع هذا المقطع الذي ينضح دلالة في المجلد الأول، الصفحة 434: **«لقد تبين وأدرك ما هي طبيعة عجلة تناسخ الأرواح، التي لها خمس علائم، وهي متحركة وغير متحركة في نفس الآن، وذلّل كل السبل التي نأتي منها إلى العالم، وذلك بأن طمسها وخربها...»**(172) إلخ. وفي كتاب [المستشرق البريطاني] سبنس هاردي (Robert Spence Hardy) المعنون بـ «الرهبانية الشرقية» (لندن، 1850) نقرأ في الصفحة 6: **«مثل دوران عجلة، ثمة تعاقب منتظم للموت والولادة، التي ترجع علتها الأخلاقية إلى التعلق بالموجودات، فيما علتها الفاعلة هي الكارما (الفعل أو العمل).»**(173) فلتنظر أيضًا إلى الصفحات 193 و223 و224 من نفس المرجع. ومكتوب في البرابودها شاندرودايا [Parabodha Chandrodaya] (الفصل الرابع، المشهد الثالث) ما مغزاه: **«الجهل هو منبع العذاب الذي يدير عجلة هذا الوجود الفاني الزائل»**. (174)

إن النشوء والفناء الدائمين للعوالم المتعاقبة قد كتب عنهما من قبل [كلوديوس] بوكانن (Buchanan)(175) في وصفه للبوذية حسب نصوص بورمية، في أبحاثه الآسيوية، المجلد السادس، الصفحة 181: **«إن عمليات التدمير وإعادة البناء المتتالية للعالم يشبه عجلة كبيرة، حيث لا نستطيع أن نحدد بدايتها ولا نهايتها»**. (176) (ونجد نفس المقطع، ولكن مفصلًا، في وصف الإمبراطورية البورمية، روما 1833، ص 7).(177)

ووفقًا لثبت المصطلحات الذي أعده غرول،(178) فمصطلح هانزا (Hansa) يرادف كلمة سنياسي (Sannyasi) (الزهد في العالم).(179) أيمكن أن يكون اسم يوحنا ـ الذي أخذنا منه اسم هانز (Hans) ـ ذا صلة بهذا وبحياته كسينياسي (أي زاهد) في الصحراء؟(180)

ثمة تشابه سطحي وعرضي تمامًا بين البوذية والمسيحية، يتجلى في كونهما لا

تسودان في الأرض التي نشأتا فيها لأول مرة، لذلك كان على كليهما أن يقول: «ليس لنبي كرامة في وطنه». (προφήτης ἐν τῇ ἰδίᾳ πατρίδι τιμὴν οὐκ ἔχει [vates in propria honore caret]).(181)

وإن أراد المرء أن يسترسل في شتى ألوان التخمين من أجل تفسير هذا الاتفاق مع التعاليم الهندية، فلأمكنه من ثم أن يفترض أن ذكر الإنجيل لقصة الهروب إلى مصر كانت تستند على أساس تاريخي، (182) وأن يسوع الذي نشأ وتربى على يد كهنة مصريين، دينهم من أصل هندي، كان ليقبل الأخلاق الهندية ومفهوم الأفتار ثم لسعى جهده من بعد متقصدًا تكييفها مع المعتقدات اليهودية في بلده الأم ومن أجل تطعيمها على الجذع القديم.

كان من شأن شعوره بتفوقه الأخلاقي والفكري أن يدفعه في خاتمة المطاف إلى أن ينظر إلى نفسه كأفتار وأن يدعو نفسه بالتبعة ابن الإنسان ليبين أنه كان أكثر من مجرد رجل فانٍ. بل قد يذهب المرء حتى إلى الحسبان أنه، بالنظر إلى قوة إرادته ونقائها، وبفضل القدرة الكلية المقترنة بالإرادة كشيء في ذاته، التي نعرفها من خلال المغناطيسية الحيوانية(183) والتأثيرات السحرية المرتبطة بها، كما أنه كان قادرًا على أن يجترح ما يسمى بالمعجزات، أي الفعل من طريق التأثير الميتافيزيقي للإرادة، وفي هذا أيضًا كان لتعاليم الكهنة المصريين أن تجديه نفعًا. وقد ضخم من شأن هذه المعجزات وطورت ووطدت غب ذلك من طريق الأسطورة ومأثور القصص الشعبية. لأن معجزة حقيقية ستكون في كل مكان بمثابة **تكذيب (dément)** (184) تفرضه الطبيعة على نفسها. *(185)

Telegram:@mbooks90

ومنذ ذلك الحين، فبناءً على افتراضات من هذا النوع كان في وسعنا أن نوضح بهذا القدر أو ذاك كيف أمكن بولس، الذي لا بد أن رسائله الرئيسة كانت أصيلة حقًا، أن يتجرأ بجدية بالغة على أن يصور رجلًا مات في زمن حديث جدًا كإله متجسد وشبيه بخالق العالم إلى درجة أن كثيرًا من معاصريه كانوا ما يزالون على قيد الحياة. والأكيد أنه كان لا بد من قرون مديدة حتى يمكن لتأليهات من هذا النوع وبهذا القدر، والتي تؤخذ في المقابل مأخذ الجد، أن تنضج شيئًا فشيئًا. ومن جانب

آخر، في وسعنا أن ندفع بحجة ضد أصالة رسائل بولس على وجه الإجمال.(186)

إني أميل إلى أن أختتم بأن أناجيلنا، بصفة عامة، مبنية على شيء ما أصلي أو على الأقل على شذرة من زمن وبيئة يسوع نفسه وتحديدًا من النبوءة الصادمة عن نهاية العالم والعودة المجيدة للرب في السحاب، والتي يفترض فيها أن تحدث أثناء حياة بعض الذين كانوا شهودًا على الوعد. لأن حقيقة: أن هذه النبوءة لم تتحقق هي أمر مزعج للغاية، والتي لم تتسبب فقط في الإساءة والإهانة في زمن لاحق، وإنما تسببت بالفعل في إحراج كل من بولس وبطرس، وهو ما يمكن تبنيه بالتفصيل في كتاب [هيرمان صامويل] ريماروس(187) المقروء على نطاق واسع، **«غرض يسوع وتلامذته»**، 42 ـ 4§§.

إن كانت الأناجيل قد أُلفت بعد حوالي قرن من دون أن توجد أية وثائق معاصرة لها، فلكان أقله على المرء أن يأخذ حذره من أن يدس فيها مثل هذه النبوءات التي كان عدم تحققها الصادم (anstößige) واضحًا كالشمس في رابعة النهار. ما كان من المحتمل أيضًا أن تقحم في طوايا الأناجيل كل هذه المقاطع التي يفسر منها ريماروس بألمعية وذكاء ثاقبين ما يدعوه بنظام التلاميذ الأول، والذي بموجبه كان يسوع في نظرهم مجرد مخلص دنيوي لليهود. لو لم يعمل مؤلفو الأناجيل على وثائق معاصرة تضم بين تجاويفها مثل تلك المقاطع. لأنه حتى التقليد الشفهي الذي تلوكه ألسنة المؤمنين كان سيكشف عن أشياء تثير القلاقل وتتسبب في زعزعة مشاعر الإيمان.

وبالمناسبة، فقد أغفل ريماروس لسبب غير مفهوم المقطع الذي يعزز فرضيته أقوى مما عداه من المقاطع، أي في إنجيل يوحنا، الإصحاح 11، العدد 48 (قارنه بـ 1:50، وبـ 6:15)، (188) وبالمثل في إنجيل متى الإصحاح 27: 28 ـ 30، وإنجيل لوقا، الإصحاح 23، الأعداد 1 ـ 4، 38، وإنجيل يوحنا، الإصحاح 19: 19 ـ 22.

لكن إن كان في المرء رغبة جادة إلى أن يؤكد هذه الفرضية ووضعها موضع التنفيذ، فما عليه إلا أن يعترف أن المحتوى الديني والأخلاقي للمسيحية كان قد أُلف وجمعت أجزاؤه من قبل اليهود السكندريين المطلعين خير الاطلاع على المعتقدات

الدينية الهندية والبوذية، وأن بطلًا سياسيًا، بمصيره المأساوي الحزين، سيأتي من بعد ليكون همزة الوصل بين تلك المعتقدات. وذلك من خلال تحويل المسيح الأرضي في الأصل إلى مسيح سماوي.

ومن طبيعة الحال، ففي جعبتنا الكثير مما يمكن قوله ضد ذلك. غير أن المبدأ الميثولوجي الذي ووضعه [دافيد فريدريش] شتراوس(189) كتفسير لتاريخ الإنجيل يبقى مبدأ صحيحًا بالتأكيد. وعلى الأقل من حيث تفاصيله، ولسوف يكون من الصعوبة بمكان أن نتبين إلى أي مدى يمتد ذلك المبدأ. وللتعرف على الطبيعة الحقة للأسطورة، فمن الضروري توضيحها بتوسل أمثلة أقرب إلى أفهامنا وأقل إثارة للشك والريبة. وهكذا، فعلى سبيل المثال، وطوال العصور الوسطى في فرنسا كما في إنجلترا، كان الملك آرثر شخصًا خارقًا، وحازمًا، ومفعمًا بالنشاط، ويظهر دائمًا بنفس الطبع، وتسير خلفه نفس الحاشية، والذي مثّل إلى جانب طاولته المستديرة، (190) وفرسانه، وأعماله البطولية الفذة، وقهرمانه (Seneschall) الغريب، وزوجته الخائنة، ولانسلوت من البحيرة، إلخ، [مثّل] الموضوع الدائم للشعراء والروائيين لقرون عديدة متعاقبة، والذين ـ بغير استثناء ـ قدموا لنا نفس الأشخاص بنفس الطبائع.

هؤلاء الشعراء والروائيون الذين يتفقون إلى حد كبير أيضًا في الأحداث، ولكنهم يختلفون شديد الاختلاف فيما بينهم فيما يهم الأزياء والعادات والأعراف. وهذا وفقًا للعصر الذي عاش فيه كل واحد منهم. وقبل بضع سنوات من الآن أرسلت الوزارة الفرنسية إلى إنجلترا السيد [ثيودور كلود هنري هيرسار] دو لا فيلماركيه (de la Villemarqué) للتحقيق في أصل أساطير ذلك الملك آرثر. فتوصل، فيما يهم الحقائق الأساسية، أن زعيمًا بسيطًا اسمه آرثر كان يعيش في بداية القرن السادس في ويلز، والذي كان يقاتل بلا كلل الساكسونيين الغزاة، غير أن أفعالهم المبتذلة أمست نسيًا منسيًا.(191)

ومن هذه القصة ـ والله وحده يعلم لماذا ـ انبثقت قصة شخص لامع بلغت شهرته الآفاق، يحتفى به على مر العصور والقرون في عدد لا يحصى من الأغاني، والروايات

والقصص. انظر القصص الشعبية لدى البريطانيين القدامى، مشفوعًا بمقالة عن أصل ملحمة الطاولة المستديرة، تأليف ثيودور دو لا فيلماركيه، المجلد الثاني، 1842، وانظر أيضًا حياة الملك آرثر، من المؤرخين القدماء والوثائق الأصلية، تأليف [جوزيف] ريتسون (Ritson)، 1825، حيث يظهر في هذا المؤلف كصورة سديمية قصية وغامضة، ولكن ليس من دون نواة حقيقية (realen Kern).

ونفس الأمر تقريبًا حدث مع رولاند، البطل الأوحد للعصور الوسطى بتمامها وكمالها، الذي تحتفي به أعداد لا تحصى من الأغاني، والقصائد الملحمية، فضلًا عن الروايات، بل تخلد ذكراه حتى أعمدة رولاند، إلى أن انتهى أخيرًا إلى أن وفر لأريوسطو (Ariosto) مادته الأولية وخرج منها غريب الأطوار شائه المعالم.

والحال أن التاريخ لا يذكر رولاند هذا إلا مرة وحيدة يتيمة، عرضًا وفي أربع كلمات، حيث عده إيغنهارد (Eginhard) من بين الأعيان الذين أقاموا في رونسيسفاليس (Roncesvalles) من أمثال هرودلاندوس، حاكم المقاطعة الحدودية البريطانية (Rutlandus, Britannici limitis praefectus)، (192) وهذا منتهى ما نعرف عنه. وبالمثل، فكل ما نعرفه حقيقة عن يسوع المسيح وارد في هذا المقطع(193) الذي يحيل فيه تاسيتوس (Tacitus) إليه في (الحوليات، الكتاب 15، الفصل 44).(194) وثمة مثال آخر بطله الشهير سيد الإسبان (Cid der Spanier)، (195) الذي تمجد ذكراه القصص البطولية وتاريخ الحروب، وقبل أي شيء في الأغاني الشعبية في الرومانسيرو (Romancero)(196) ذائعة الصيت والرائعة الجمال، وأخيرًا في أفضل تراجيديات كورناي (Corneille). (197)

وهنا أيضًا ينعقد الإجماع بين الجميع إلى حد ما حول الأحداث الرئيسة، ولا سيما في أمر خيمينا (Chimene).(198) وعلى الرغم من أن البيانات التاريخية المتفرقة لا توفر لنا شيئًا ذا بال عنه، ما عدا بالطبع أنه كان فارسًا مغوارًا وقائدًا عسكريًا محنكًا ذا مراس، ولكن، ذو طبع جلف قاسٍ وغمالج لا يثبت على موقف أو

حال أو رأي، بل كان في الواقع مرتزقًا، يتقلب ولاؤه بين هذا الحزب أو ذاك الحزب الآخر وغالبًا ما كان يتشيع للساراسين(199) أكثر من المسيحيين، تقريبًا مثل الكوندوتييرو (Condottiere)(200) ولكن متزوجًا بخيمينا.

ولمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى **أبحاث في تاريخ إسبانيا،** (201) الذي ألفه [رينهاردت بيتر آن] دوزي (Dozy)، سنة 1849، الذي يبدو أنه كان أول من اكتشف المصدر الصحيح.

يا ترى ما عساه كان الأساس التاريخي للإلياذة؟..

أجل.. فلكي نتحدث عن أحداث قريبة زمنيًا إلينا، فلنتفكر في أطروفة تفاحة نيوتن، التي أوضحت أعلاه في. 86 § كيف أنها لا تقف على أساس متين، ولكنها مع ذلك تكررت الورود في آلاف الكتب، تمامًا مثل يولر (Euler) نفسه في المجلد الأول من **رسائله إلى أميرة ألمانية.** لم يتخلف عن رسم القصة **بكثير من المودة والحب (con amore).** وبصفة عامة، إن كنا نريد من التاريخ أن يكون على قدر كبير من الأهمية، فإن نوعنا البشري ليس مضطرًا لأن يكون مؤلفًا من مثل هؤلاء الكذاب الأشرين، وهذا حاله للأسف الشديد.

الفصل السابع

الطوائف والفرق

إن **الأوغسطينية** هي ـ بعقيدتها عن الخطيئة الأصلية وكل ما ينجر عنها، كما سبق وقلت في موضع آخر ـ المسيحية الحقة والأقرب إلى الأفهام (wohlverstandene). أما **البيلاجية**، في مقابلها، فتمثل مسعى يريد رد المسيحية إلى اليهودية الفجة السمجة والسطحية وإلى تفاؤلها.

لربما ترجع جذور التعارض بين الأوغسطينية والبيلاجية، الذي ما يلبث يقسم الكنيسة، إلى أساسه الأخير، أي إلى حقيقة أن الأولى (الأوغسطينية) تتحدث عن ماهية الأشياء في ذاتها، بينما الثانية (البيلاجية) تتحدث عن الظاهر، الذي تأخذه على أنه ماهية. فعلى سبيل المثال: فنصير البلاجية ينكر الخطيئة الأصلية، لأن الطفل الذي لم يأتِ بعد أي فعل منكر، يجب أن يكون بريئًا، لأنه لا يرى أن الطفل ـ بوصفه ظاهرًا ـ يبدأ فعلًا في الوجود، ولكن ليس بوصفه شيئًا في ذاته.

وينطبق الأمر نفسه على حرية الإرادة، وعلى الموت الفدائي للمخلص، وعلى النعمة، وباختصار إنه ينطبق على كل شيء. وكنتيجة لكونها مفهومة وسطحية، فالبيلاجية تسود دائمًا، أكثر من أي وقت مضى، ولكن راهنا بوصفها عقلانية. إن الكنيسة اليونانية شكل معتدل من البيلاجية، ومنذ مجمع ترينتو (Concilio Tridentino)، والكنيسة الكاثوليكية أيضًا التي كانت تسعى على هذا النحو إلى وضع نفسها في تعارض مع الكنيسة الأوغسطينية، ومن ثم مع ذوي النزعة الصوفية لوثر كما كالفين. [...](202) ولأن البروتستانتية كانت قد أمست مسيحية كليلة أو بالأحرى مسيحية مهيضة الجناح منذ أن رفضت العزوبة وبشكل عام حياة الزهد، ناهيك عن ممثليها، القديسين. لقد أضاعت الآن وجهتها، وباتت لا تفضي إلى أي شيء.*(203)

الفصل الثامن

العقلانية..

إن نواة المسيحية وقلبها النابض، يتمثلان في عقيدة سقوط الإنسان، والخطيئة الأصلية، وانحطاط حالتنا الطبيعية وفساد الإنسان الطبيعي، جنبًا إلى جنب مع الشفاعة والمصالحة التي يأتي بها المخلص، والتي يصير فيها المرء شريكًا بالإيمان به. لكن نتيجة لذلك يبدو كل هذا على أنه تشاؤم وهو بذلك يتعارض تعارضًا مطلقًا مع تفاؤل اليهودية، كما مع خلفها الشرعي، الإسلام.

في حين أنه وثيق الصلة بالبراهمانية والبوذية. فبناء على حقيقة أن جميع بني البشر قد أذنب وطرد من رحمة الله بسبب آدم، وأن المخلص ـ في المقابل ـ قد افتداهم بروحه، فهذا يبين: أن ماهية الإنسان الفعلية وجذوره الحقيقية ليست كامنة في الفرد وإنما في النوع، وهي ذات الفكرة (الأفلاطونية) عن الإنسان، التي يجسد الأفراد ظاهرها الممتد في الزمان.

إن الفرق الجوهري بين الأديان يكمن فيما إذا كانت أديان تفاؤل أو أديان تشاؤم، ولا يكمن بأي حال من الأحوال فيما إذا كان أساسها التوحيد أو تعدد الآلهة أو التريمورتي (Trimurti)(204) أو عقيدة الثالوث أو وحدة الوجود أو الإلحاد (على غرار البوذية). وبهذا الحسبان، فإن العهد القديم والعهد الجديد متعارضان بإطلاق فيما بينهما، ويشكل اتحادهما قنطورًا شاذًا وغريب المعالم. (205) ذلك أن العهد القديم تفاؤلي الهوى، والعهد الجديد تشاؤمي المنزع.

إن الأول ينبثق من عقيدة أورموزد، (206) والثاني، وفقًا لروحه الداخلية، وثيق القربى بالبراهمانية والبوذية، لذا فمن المحتمل بطريقة ما أن تعود جذوره التاريخية إليهما. إن العهد القديم عبارة عن موسيقى بالمفتاح الكبير، والعهد الجديد عبارة عن موسيقى بالمفتاح الصغير. وحده سقوط الإنسان يمثل استثناء في العهد القديم، لكنه ما يلبث غير مستخدم، قائمًا هناك مثل مقبلات (hors - d'œuvre)، إلى أن تلقفته المسيحية مرة أخرى باعتباره نقطة الاشتراك الوحيدة التي تناسبها.

لكن عقلانيينا اليوم، وسيرًا على خطى بيلاجيوس يعملون جاهدين من خلال التفسير على طمس السمة الأساسية للمسيحية المذكورة أعلاه، والتي أحسن أوغسطين، ولوثر، و[فيليب] ميلنشتون تأويلها وفهمها بدقة وتنسيقها قدر المستطاع، قصد رد المسيحية إلى يهودية متفائلة أنانية وسخيفة، مع إضافة أخلاق أرفع وحياة مستقبلية وفق ما يتطلب ذلك التفاؤل المتساوق معها حين تطبق بثبات.

وبهذه الكيفية لن ينتهي المجد إلى نهايته بهذه السرعة، والموت، الذي يصرخ بأعلى صوته ضد الرؤية المتفائلة ويبدو في النهاية مثل الضيف الحجري الذي سيُرسل إلى الجذل دون جوان.(207) إن العقلانيين أناس شرفاء، لكنهم أشخاص سطحيون غشماء، لا يملكون أي معرفة بالمعنى العميق لأسطورة العهد الجديد، ولا في مستطاعهم مجاوزة التفاؤل اليهودي، القريب إلى أفهامهم كما إلى أذواقهم.

إنهم يرغبون في الحقيقة العارية والجافة، سواء في التاريخ أو في العقائد. وبإمكاننا مقارنة هذه الأخيرة باليوهيمرية (Euphemerismus)(208) في العصور القديمة. صحيح أن ما يأتي به علماء ما فوق الطبيعة هو في الأساس أسطورة.. لكنها أسطورة تحمل حقائق عميقة ومهمة من المستحيل أن تنقل إلى عموم الناس بأي وسيلة أخرى.(209) ومن ناحية أخرى، فالمدى الذي يبلغه أولئك العقلانيون في البعد عن كل معرفة، أجل.. وعن كل فهم لمعنى المسيحية وروحها، يكشف عنه على سبيل المثال حواريهم العظيم فيغشايدر ([- JulesAuguste Wegscheider [Louis)، بدوغمائيته الساذجة.(210) حيث يضع (§115 مع الملاحظات) بلا ذرة خجل الأقوال العميقة لأوغسطين والمصلحين حول الخطيئة الأصلية والفساد الجوهري للإنسان الطبيعي بجوار الثرثرة السخيفة والهذر المهذرم لشيشرون في مجموع كتبه عن الواجبات (De officiis)، لأن مثل هذا الهراء يناسب ذوقه بشكل أفضل.

يجب على المرء أن يندهش حقًا من السذاجة والبساطة اللتين يظهر بهما هذا الرجل ابتذاله، وسطحيته وضحالته، بل وافتقاره الكلي لأي إحساس بروح

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

المسيحية. لكنه ليس سوى واحد من بين كثيرين (unus e multis). ورغم كل ذلك، فقد وظّف [كارل غوتلب] بريتشنايدر(211) التفسير ليستبعد الخطيئة الأصلية من الكتاب المقدس، بينما الخطيئة الأصلية والفداء يمثلان معًا جوهر المسيحية.

من ناحية أخرى، لا يمكننا أن ننكر أن علماء ما وراء الطبيعة يكونون في بعض الأحيان أسوأ بكثير، أي كهنة، بأشنع ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معانٍ. على سفينة المسيحية الآن أن ترى كيف تشق سبيلها بين لجج سيلا وخريبديس.(212) إذ أن الخطأ المشترك لكلا الطرفين هو أنهما يبحثان عن حقيقة غير محجوبة وجافة وحرفية في الدين، لكن هذا ما تتشوف إليه الفلسفة حصرًا.

ينطوي الدين على حقيقة واحدة فقط بما هي حقيقة تناسب عقول عموم الناس، وهي حقيقة غير مباشرة ورمزية ومجازية. إن المسيحية هي حكاية رمزية تعكس فكرة حقيقية، لكن الحكاية الرمزية ليست في حد ذاتها حقيقة لا غبار عليها. ومع ذلك، لنفترض أن هذا هو الخطأ الذي يتفق عليه علماء ما فوق الطبيعة والعقلانيون. فالأوائل يريدون التأكيد على أن الحكاية الرمزية صحيحة في حد ذاتها، بينما الثواني يتوقون إلى مداراتها وتشكيلها وصياغتها حتى تصبح صحيحة في ذاتها، وفقًا لمواصفاتهم. وتأسيسًا على ذلك، يجادل كل طرف ضد الطرف الآخر بأسباب وجيهة وقوية الحجية. يتوجه العقلانيون إلى علماء ما وراء الطبيعة قائلين: **«إن تعاليم عقيدتكم ليست صحيحة.»** ويعقب علماء ما وراء الطبيعة قائلين: **«إن تعاليم عقيدتكم ليست مسيحية.»** كلاهما على حق..

إذ يعتقد العقلانيون أنهم يتخذون العقل معيارًا لهم، لكنهم في الواقع، لا يحتكمون إلا إلى العقل الواقع في فخ الافتراضات المسبقة لعقيدة التوحيد والتفاؤل، أي بوصفه شيئًا شبيهًا بـ«إقرار الإيمان لكاهن سافوا» لروسو،(213) هذا النموذج الأولي لأي عقلانية. لذلك، فهم لا يقبلون شيئًا من العقيدة المسيحية لتستمر في الوجود ما عدا ما في وسعهم اعتباره صحيحًا **بالمعنى الحرفي (sensu proprio)**، أي عقيدة التوحيد والروح الخالدة.

ولكن حين توافيهم الجرأة ليلتمسوا **العقل المحض**، فيجب علينا إذًا أن نقدمه لهم مع نقد لنفس الشيء (أي نقد العقل المحض)، حتى نرغمهم على أن يدركوا أن هذه العقائد الخاصة بهم، التي ارتأوا الإبقاء عليها، لأنها توافق للعقل، لا تستند إلا إلى مجرد تطبيق مفارق لمبادئ محايثة، وبالتالي فهي لا تشكل سوى دوغمائية فلسفية غير نقدية، ومن ثم لا سبيل إلى الدفاع عنها، وهي الدوغمائية التي يعارضها **نقد العقل الخالص** في كل صفحة من صفحاته والتي أثبت أنها عديمة الجدوى، فحتى العنوان(214) يشي بتناقضه مع العقلانية.

وبناءً على ذلك، فإن كان قوام المذهب فوق الطبيعي حقيقة مجازية، فلا يمكن للمرء أن يسند على الإطلاق أية حقيقة مجازية إلى العقلانية. إن العقلانيين مخطئون ببساطة، ومن يرغب في أن يكون عقلانيًا، فيجب أن يكون فيلسوفًا، ويحرر نفسه بالتبعة من أزمة أية سلطة، ويمضي قدمًا من غير أن يخشى شيئًا. ولكن إن المرء يتشوف لأن يكون لاهوتيًا، فليكن منطقيًا ومتماسكًا وألّا يتخلى أبدًا عن أساس السلطة، حتى لو أمرتك أن تصدق ما لا يمكن تصديقه. إذ لا يمكن للمرء أن يخدم سيدين: فإما العقل وإما الكتابات المقدسة (Schrift). يعني **الوسط الذهبي (Juste milieu)** هنا القعود بين مقعدين. إما أن تؤمن أو أن تتفلسف!.. لكن الإيمان المعتدل وليس إلى أبعد الحدود، وبالمثل أن تتفلسف باعتدال وليس بإفراط. هذه هي أنصاف الحلول التي تمثل الطابع الأساسي للعقلانية.

ومن جهة أخرى، فإن للعقلانيين كامل العذر أخلاقيًا إذا ما أدوا عملهم بأمانة تامة وما خدعوا سوى أنفسهم، في حين أن علماء ما وراء الطبيعة، بإثباتهم للحقيقة **بالمعنى الحرفي (sensu proprio)** لمجرد حكاية رمزية، فإنهم يتقصدون عمدًا وفي أكثر الأحيان إلى خداع الآخرين وتضليلهم. ومع ذلك، فببذل هؤلاء الأخيرين لهذا الجهد، تصان الحقيقة المتضمنة في القصة الرمزية. أما العقلانيون، على الضد من الأوائل، فمن خلال ابتذالهم وضحالتهم الشمالية، يرمون من النافذة تلك الحقيقة ومعها جوهر المسيحية ذاته، وبالفعل، فخطوة خطوة ينتهي هؤلاء إلى الوصول حيث وصل فولتير قبل ثمانين سنة خلت في وثبة واحدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرًا ما يكون من الممتع للفؤاد أن نرى كيف يسعون، وهم يوطدون صفات الله (أي ماهيته: quidditas)، حين لا تفي كلمة بسيطة وشيبوليث «الله» بالغرض، بدأب وعناية إلى إيجاد الوسط الذهبي (juste milieu) بين الكائن البشري الفاني وقوة طبيعية، وهذا بالطبع أمر عسير التحقق. ففي هذا الصراع الناشب بين العقلانيين وعلماء ما فوق الطبيعة، يبيد كلا الطرفين بعضهما البعض، مثل الرجال المدججين بالسلاح الخارجين من بين أسنان التنين التي غرسها قدموس (Cadmos). ومن ثم، فالأمر يتلقى ضربة قاتلة من جهة النفاق والرياء الذي تفوح رائحته هنا. فتمامًا مثلما يرى المرء رجالًا متقنعين كلهم حماسة يتجولون في كرنفالات المدن الإيطالية بين الناس الذين ينصرفون إلى أشغالهم بمهابة وجدية، مثلما نرى أيضًا اليوم في ألمانيا بين صفوف الفلاسفة وعلماء الطبيعة والمؤرخين والنقاد والعقلانيين، كيف أن المنافقين يحتشدون في زي زمن ولى منذ قرون غابرة، فيكون التأثير هزليًا، خاصة لما يحاضرون أو يخطبون في الناس.

إن أولئك الذين يعتقدون أن العلوم يمكن أن تواصل تقدمها حثيثًا ويمكن أن تنتشر أكثر فأكثر دون أن يمنع هذا الدين من البقاء إلى الأبد ومن الازدهار يقعون في خطأ فادح. فالفيزياء والميتافيزيقا هما عدوان طبيعيان للدين، ولهذا السبب فإن الدين هو عدو لهما، وهو بقدر ما يسعى في كل الأزمنة والعصور إلى أن يقمعهما ويكبح تقدمهما بقدر ما يسعى ذينك إلى تقويض أساسه. فأن نتحدث عن السلام والوفاق بين الطرفين أمر مثير لعظيم السخرية.. إنها حرب حياة أو موت (bellum ad internecionem).(215)

إن الأديان هي أبناء الجهل الذين لا يعمرون طويلًا بعد أن تقضي أمهم نحبها. لقد فطن عمر(216) إلى ذلك الأمر حينما أحرق مكتبة الإسكندرية. كان عذره في ذلك إما أن محتويات الكتب كانت واردة في القرآن أو أنها فائضة عن الحاجة، ويبدو هكذا تصرف تصرفًا غبيًا وساذجًا، لكنه كان في منتهى الحصافة والفطنة إذا فهم **بشيء من التروي وإمعان التفكير** (cum grano salis)، لأن ذلك يعني أنه إذا تجاوزت العلوم القرآن فهي أعداء للدين، وبالتالي فلا مجال للتسامح معها.

كانت المسيحية أن تكون أفضل حالًا لو كان الحكام المسيحيون بذكاء ودهاء عمر. لكن الآن.. قد فات الأوان لحرق جميع الكتب، وإلغاء الأكاديميات، وضرب الجامعات في الصميم **بفرض «الإرادة فوق العقل»** (pro ratione voluntas)، (217) من أجل إعادة البشرية إلى ما كانت عليه في العصور الوسطى. وليس ثمة شيء يمكن فعله بواسطة حفنة من الظلاميين. يمكنك رؤيتها اليوم مثل الأشخاص الذين يريدون إطفاء النور بغرض السرقة. لذلك، فمن الواضح أن الشعوب تفكر شيئًا فشيئًا بكسر نير الإيمان. أعراض هذا تظهر في كل مكان، على الرغم من أنها تتغير بشكل يختلف حسب البلدان. السبب هو فرط المعارف التي باتت بين أيديهم.

إن المعارف من كل لون وصنف، والتي تتزايد يومًا بعد يوم وتنتشر في جميع الاتجاهات، توسع أفق الجميع، كل حسب مجاله، لدرجة أنه أصبح عليه في النهاية أن يبلغ حجمًا تنكمش على أساسه الأساطير، التي تشكل الهيكل العظمي للمسيحية، حتى لا تبقى أي فسحة للإيمان. يكبر الجنس البشري على الدين مثلما هو شأن ثوب الطفل، فليس هناك ما يوقفه ـ محتم أنه سينفجر.(218) إن الإيمان والمعرفة يتعايشان في رأس واحدة، فمثلهما كمثل الذئب والحمل اللذين يعيشان في قفص واحد، ولا شك أن المعرفة هي الذئب الذي يهدد بالتهام جاره.

يرى المرء في سكرات الموت أن الدين يتمسك بالأخلاق، التي تود أن تظهر بمظهر أم لها. لكن عبثًا!.. فالأخلاق الحقيقية والأخلاقية لا ترتبط في الواقع بأي دين، على الرغم من أن كلًا منها يقرها وبالتالي يمنحه كل دعمه.

بعد أن طُردت المسيحية ابتداء من الطبقات الوسطى، ها هي تلجأ إلى الطبقات الدنيا، حيث تظهر كمؤسسة سرية للعبادة، وفي الطبقات الأعلى، حيث تصبح المسألة متعلقة بالسياسة، لكن يجب على المرء أن يضع في اعتباره أن كلمة غوته تنطبق أيضًا على هذا:

يشعر المرء بالنوايا، فيعتريه الضيق.(219)

وهنا سوف يتذكر القارئ المقطع الذي اقتبسته من كوندورسيه في ص60.

إن الإيمان مثل الحب. لا يمكن أن يقوم على الإرغام والإكراه. ومن ثم، فإن في محاولة إدخالها أو تعزيزها من خلال تدابير الدولة لمسعى مريب، لأن محاولة الإكراه على الحب تفضي إلى الكراهية. لهذا أيضًا، ففرض الإيمان بالعسف، سينتهي لا محالة إلى اللاإيمان.(220) لا يمكن تعزيز الإيمان إلا بسبيل غير مباشر تمامًا، وبالتالي باتباع خطوات وتدابير يتم اتخاذها قبل ردح طويل من الزمن، أي من خلال إعداد تربة خصبة تصلح لأن يزدهر فيها.

إن الجهل هو كفيء تلك التربة. لذلك، فقد وطن هذا الجهل في إنجلترا منذ العصور القديمة وحتى أيامنا هذه، حيث إن ثلثي الأمة أميون، وبالتالي لا يزال يسود هناك حتى اليوم إيمان العجائز، مثلما يمكن للمرء أن يبحث عنه عبثًا في مكان آخر. ولكن الآن تتعهد الحكومة هناك أيضًا بإخراج تعليم وتربية الشعب من أيدي رجال الدين، وبعد هذا فلا شك أن الأمور ستتجه قريبًا إلى قطع دابر الإيمان.

وعلى وجه الإجمال، إذًا.. فالمسيحية تقترب تدريجيًا من حتفها، ذلك أن العلوم تقوض أركانها بلا كلل.(221) في غضون ذلك، فبارقة الأمل الوحيدة التي لا زالت تلوح في سماء المسيحية تتجلى في حقيقة أن الأديان التي تدول هي الأديان غير الموثقة. فديانة اليونانيين والرومان، هذان الشعبان اللذان حكما العالم من شرقه إلى غربه، قد دارت عليها دوائر الدهر. وبخلاف ذلك، نجا دين الشعب اليهودي الصغير والمحتقر، تمامًا مثل بقي دين شعب الزند، بين الفرس. في حين باد دين الغاليين والاسكندنافيين والجرمان. لكن الديانتين البراهمانية والبوذية ما تلبثان قائمتي الذات ومزدهرتين، فهما الأضرب في القدم على الإطلاق، وفي جعبتهما وثائق وفيرة وكثيفة التفاصيل.

الفصل التاسع

إن الدين، الذي يقوم بنيانه على **حدث يتيم** كأساس له، سيأمل من طبيعة الحال في أن يتخذ من ذلك الحدث الأبتر الذي وقع في مكان وزمان محددين نقطة تحول العالم وكل الوجود، لكن إن كان له مثل هذا الأساس الهش فلا يمكنه أن يستمر في البقاء ما أن يبدأ الناس في التفكير ولو قليلًا. وفي المقابل، كم هي حكيمة **البوذية** بافتراضها ألف بوذا!.. وهي بهذه الطريقة لا تبدو مثل المسيحية، التي فدى فيها يسوع المسيح العالم والذي لا خلاص للعالمين إلا على يديه، لكن.. أربعة آلاف من السنين التي تنتصب آثارها شامخة بهية في مصر، وآسيا، وأوروبا لا تعرف شيئًا عنه، وأن هذه العصور بكل روعتها وأمجادها ستساق إلى مملكة الشيطان حتى من دون أن تراه!.

إن نسخ البوذا العديدين ضروريون لأنه في نهاية كل كالبا(222) يفنى العالم، فتباد التعاليم معه، ولذلك فكل عالم جديد يقتضي إحياء بوذا جديد. وبالنتيجة، فالخلاص (das Heil) قائم دائمًا.(223)

إذا بلغت **الحضارة** أوجها عند الشعوب **المسيحية**، فهذا لا يتأتى من أن حقيقة أن **المسيحية** مواتية لها، وإنما على حقيقة أنها في نزعها الأخير، ومن ثم فقد باتت بلا مفعول يذكر، فطالما كان لها تأثير، كانت الحضارة في مؤخرة الركب، كما كان الحال في العصور الوسطى. ومن ناحية أخرى، لا يزال **للإسلام والبراهمانية والبوذية** تأثير بعيد المدى على الحياة، وإن كان ذلك بدرجات أقل في الصين، الأمر الذي يفسر لماذا تشبه حضارتهم حضارة أوروبا. إن كل **دين** معاد ومناهض [بطبيعته] للثقافة.(224)

في العصور والقرون التي خلت، كان الدين بمثابة غابة يمكن للجيوش أن ترابط وتحتمي بها. لكن أية محاولة لتكرار ذلك في أيامنا هذه باءت بفشل ذريع.(225) ولكن بعد عدد لا يحصى من عمليات قطع الأشجار، لم تتبقَ سوى أجمة واحدة يختبئ وراءها من حين إلى حين المحتالون والكذبة الأفاكون. لهذا السبب، من الواجب على كل امرئ أن يحذر من أولئك الذين يمنون النفس بحشر أنف الدين في

كل شيء، وأن يجابههم بالمثل الذي ذكرته آنفًا: «detras de la cruz està el diablo» (خلف الصليب يربض الشيطان).

---

(1) سبق وترجمت هذه المقالة في كتاب ميتافيزيقا الحب/دار الرافدين/ 2021. (المترجم).

(2) ابتداء من منتصف القرن الثامن عشر اهتم العديد من نوابغ ألمانيا من بينهم غوته وفريدريش ركيرت وشوبنهاور بالبراهمانية والبوذية، وبعدهم نيتشه الذي سيوجه عنايته بخاصة إلى ديانة زرادشت. (المترجم).

(3) انظر مقدمة ميتافيزيقا الحب/ ص 9 ـ 20.

(4) الكلمة تتألف من كلمتين («ديمو» و«فيلوس»)، فالأولى سابقة مشتقة من اليونانية وتعني الشعب، والثانية لاحقة من اليونانية تعني محبًا أو صديقًا. لتعني الكلمة في مجملها صديق أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رجل الشعب. والمقابل العربي الأقرب هو رجل من العامة أو الدهماء أو الطغام. (المترجم).

(5) الكلمة من شقين: فيلي وتعني صديقًا أو محبًا، كما رأينا أعلاه، وليثيا: اليونانية التي تعني الحقيقة. ومن ثم، فالكلمة تحيل إلى معنى محب الحقيقة. وجدير بالذكر أن شوبنهاور طالما قال في العالم كإرادة وتمثل بأنه لا يتطلع إلا إلى الحقيقة. (المترجم).

(6) من المعلوم بالنسبة لقراء شوبنهاور عن اللغة الألمانية أو حتى عن باقي ترجماته في اللغات الأوروبية الحية: أن هذا الفيلسوف، على غير أدبيات الكتابة المعاصرة طبعًا، يقتبس من أعمال فلاسفة وشعراء وروائيين ومؤرخين وأنبياء... وغيرهم بلغتهم الأصلية في الأغلب الأعم من الأحيان. وبهذا الحسبان، فصاحب العالم كإرادة وتمثل يؤثث نصوصه بست لغات أخرى على الأقل كان يتقنها (اليونانية ـ اللاتينية ـ الإنجليزية ـ الفرنسية ـ الإسبانية ـ الإيطالية). وحين كان يستشهد بأولئك كان ينسى أن يذكر المصدر حينًا أو ينقله ناقصًا طورًا أو يذكره داخل المتن تارة. وبغاية المحافظة على بنية المتن الشوبنهاوري، سنحاول في كل مرة أن نثبت العبارات كما يقتبسها شوبنهاور في لغتها الأصلية، ثم مترجمة بعدئذ. (المترجم).

(7) «فلن تبزغ على هذه الأرض شمس الحقيقة... بهذه الطريقة». هذا ما خطته يد شوبنهاور في الطبعة A. في الواقع استفدت من هوامش الترجمة الإنجليزية التي نهض بها كل من أدريان ديل كارو وكريستوفر جاناواي (2015)، كما رجعت في كل مرة إلى النص الأصلي من أجل المقارنة والتثبت. (المترجم).

(8) كعادة شوبنهاور في الاقتباس ترد العبارة الأفلاطونية باليونانية وغير مترجمة في النص الأصلي. وهي كالتالي: «φιλοσοφον πληθος αδυνατον ειναι» ودون إحالة حتى إلى كتاب أفلاطون المقصود. وجدير بالإشارة فهذه العبارة واردة في كتاب الجمهورية السادس، الفقرة 494a. (المترجم).

(9) «لأن في الإنسان حاجة... الفهم»، أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(10) أي بمعنى: الشاذة والغريبة في هذا السياق. (المترجم).

(11) «لا يسيئنك... الخطاطات».. مكتوبة بيد شوبنهاور في الطبعة A.

(12) المقصود الكأس التي تجرع منها سقراط سم الشوكران. (المترجم).

(13) «وفانيني».. أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(14) بالفرنسية في النص. جرت عادة شوبنهاور على تأثيث متنه باقتباسات من لغات أخرى، بخاصة تلك التي كان يقرأ بها، وكيما نحافظ على هذه السمة المميزة له سنضعها دائمًا في متن النص بلغتها الأصلية ومترجمة. (المترجم).

(15) في الأصل، كان autodafé هو حفل التكفير العام الذي نظمته محاكم التفتيش الإسبانية أو البرتغالية، حيث أعلن الأخير أحكامه. في اللغة الشعبية، بات هذا المصطلح مرادفًا للإعدام العلني للأشخاص الذين يُعتبرون مهرطقين أو زنادقة، بالنار. (المترجم).

(16) كان البلطجية، أو Thags, أو Thagîs يشكلون جماعة من القتلة المحترفين وعبادًا Kâl يُطلق عليهم أحيانا في هذا السياق Bhowani. نشطت في الهند من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر، كانت الأخوة قد ظهرت في عهد جلال الدين فيروز خالجي. تذكر بطائفة الحشاشين التي أسسها الحسن بن الصباح، وهي حركة اتخذت من القلاع الحصينة مثل قلعة آلموت في فارس معقلًا لها لتنشر دعوتها الإسماعيلية النزارية، وإلى ذلك اشتهرت هذه الطغمة بسياسة الاغتيالات. وقد لقيت نفس مصير حركة التاغ بعد أن أبيد أفرادها عن بكرة أبيهم على يد المغول. (المترجم).

(17) Illustrations of the history and practice of the Thugs. London 1837, auch Edinburgh' Review, Octr. _ Jan. 1836/37.

(18) هذا يذكرنا بالينبوع التاريخي للدين من منظور فرويد. وهذا ما أكّد عليه باحثون كثر من أن الكثير من أفكار فرويد مصدرها آرثر شوبنهاور. (المترجم).

(19) هكذا أسماهم، على سبيل الازدراء، الأوروبيون بعد اكتشاف وجودهم في سنة 1652 من قبل الهولنديين. لكن اسمهم الحقيقي الخويخون (Khoikhoi)، وهم مجموعة عرقية تتحدر من الخويسان وجدت في جنوب غرب أفريقيا، عاشوا على تربية المواشي والأغنام. (المترجم).

(20) الكافير (Kaffir, Keffir, Kafri) هو مصطلح عنصري، يشير إلى الأفارقة السود من جنوب أفريقيا. ويقابل هذا المصطلح كلمة زنجي في الولايات المتحدة أو فرنسا الكولونيالية. (المترجم).

(21) في النسخة A لا يبلغ هذا العدد إلى 115 مليون نسمة. وقد صحح هذا العدد من جهة وأضيفت «وفقًا للتايمز عدد أبريل 1852» بخط اليد إلى الطبعة A.

(22) راجع في الأعلى § 116 في النسخة A و115 في النسخة B.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(23) في النسخة A: «التعليم الإنكليزي الغربي». (المترجم).

(24) حرفيًا.. كما لو أنه مغطى أو مكسو بألواح الخشب. (المترجم).

(25) اسمه باللاتينية بيتروس بومبوناتيوس، فيما اسمه الحقيقي بييترو بومبوناتزي (Pietro Pomponazzi)، وهو فيلسوف إيطالي إنسانوي من فلاسفة عصر النهضة. رفض فكرة خلود النفس الفيثاغورية ـ الأفلاطونية، فأثار غضب رجال الكنيسة فأحرقت كتبه. قال عنه بيير بايل: «كان من أبرز فلاسفة عصره» (انظر القاموس التاريخي النقدي). من أشهر مؤلفاته: «رسالة في خلود النفس.. عن المصير وحرية الإرادة والقدر». (المترجم).

(26) ترد العبارة هكذا بنصها وفصها اللاتيني. والاقتباس من (De Incantationibus, chapitre 7).

(27) ترجم هذا المصطلح ترجمات مختلفة، ففي الفرنسية، ترجم بتشديد من المترجم بلفظة dressage التي تعني الترويض (انظر Parerga et Paralipomena, Tome II, 2012, p. 499) وفي الإيطالية ترجمت بلفظة asseto التي تعني الإعداد والترتيب (انظر Parerga e Paralipomena, vol. 2, 1998, p. 431)، وفي الترجمتين الإنجليزيتين نقلت مرة إلى preparation (انظر Parerga and Paralipomena, volume II, 2001, p. 330) ومرة إلى orientation أي بمعنى التوجيه (انظر Parerga and Paralipomena, volume II, 2015, p. 831).

(28) «هذا يكاد يتفق مع... ستيفانوس».. كتب بخط اليد في الطبعة A.

(29) يشدد عليها شوبنهاور في النسخة A دون أن يحيل على صاحبها وهو غوته. (انظر [Goethe, Faust, I, 1690 - 1]). (م).

(30) الإحالة إلى أبوليوس خطت بيد شوبنهاور في الطبعة A. وعنوان المرجع باللغة العربية: عن إله سقراط، الفصل الخامس عشر/ المجلد الثاني/ ص 237. (المترجم).

(31) أي: خياليًا ووهميًا مثلما حارب دون كيخوته، متأثرًا بروايات الفروسية، طواحين الهواء. (المترجم).

(32) مادةٌ تُضاف إلى الدّواءِ لِيُصبح سائِلًا. محلول مذيب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(33) الكلور والكلوريد من المصطلحات الشائعة في الكيمياء، فالكلور عنصر كيميائي لونه أخضر مصفر رقمه الذري 17 ويحتوي على 17 إلكترونًا، في حين أن الكلوريد هو أنيون (=أيون سالب الشحنة) مشتق من ذرة الكلور وهو يتألف من 18 إلكترونًا وأيوناته عديمة اللون في المحلول المائي. من الأمثلة الشائعة على مركب يحتوي على أيون كلوريد ملح الطعام أو كلوريد الصوديوم. (المترجم).

(34) غاز سام ذو تأثير سلبي على الكائنات الحيّة. يقع عنصر الفلور على رأس مجموعة الهالوجينات في الجدول الدوري، وهو ذو نشاط كيميائي كبير، إذ أنه أكثر عناصر الجدول الدوري كهرسلبية، ويشكّل مركّبات كيميائية مع أغلبها، حتى مع بعض الغازات النبيلة. وتسمى أملاح عنصر الفلور بـ اسم الفلوريدات. (المترجم).

(35) حرفيًا سهلة الهضم. (المترجم).

(36) طقوس دينية سرية كانت تمارس في اليونان القديمة. (المترجم).

(37) حرفيًا اللاحقيقة (Unwahrheit). (المترجم).

(38) وردت كالعادة بلغتها الأصلية، غير أن اللافت للنظر أن شوبنهاور ينسب هذا الشعار خطأً إلى الفيلسوف الفرنسي مالبرانش، لكن يبدو أن هذا القول هو لهيلفيتيوس، في **عن الروح**، الخطاب الأول، الفصل الرابع. هامش الترجمة الإنجليزية.

(39) «وعليه، فالدين... على طول الطريق».. أضيفت بخط يد شوبنهاور إلى الطبعة A.

(40) العبارة مأخوذة على ما يبدو عن أوفيد (انظر التحولات، IX, 711) حسب الترجمة الفرنسية/ ص 510.

(41) «لأنه «البساطة عنوان الحقيقة [simplex sigillum veri]»... قناع الدين»: فقرة مأخوذة من Spicilegi 301.

(42) «ديموفيلس: إنك لا تملك أدنى فكرة... سواد الناس الأعظم»، فيلاليثس: «لا أعرب سوى عن...دابره».. أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A. 'وبالتالي فالحقيقة في شكلها البسيط والمفهوم، ستطيح'.. تعديل بقلم شوبنهاور في الطبعة A نجد: «وبالتالي فالأخير سيكون». (المترجم).

(43) نسبة إلى السانياسا (sannyāsa) وتعني في الديانة الهندوسية الزهد والعزوف عن

يتعلق الأمر بالطور الرابع (أشراما) من الحياة البراهمانية حيث تتبدد الرغبات والأهواء ومشاعر الارتباط على نار المعرفة، التي يرمز إليها الهندام البرتقالي الذي يتدثر به السانياسين أو الزاهد. (المترجم).

(44) مجموعة قصائد قصيرة جدًا من التاميل (من سطرين)، تشبه الهايكو الياباني. (الترجمة الفرنسية).

* انظر أعلاه، ص 77 من المرجع الأصلي.

(45) ست جمل «فأي كان سيصدر أحكامًا... (البيت 1071)»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A. هذا يذكر بالقولة التي أضحت مثلًا لموليير. انظر: المحاضرة 18 لفرويد. (المترجم).

(46) انظر قصيدة [Beherzigung (Take to Heart), poem]. (الترجمة الإنجليزية).

(47) هذه الجمل الثلاث الأخيرة، أضيفت بخط اليد إلى النسخة A (الترجمة الإنكليزية) وغير واردة في الترجمة الفرنسية.

(48) حسب معجم ليتري: أي من بلغ الدرجة الثالثة والأخيرة في الاطلاع على/ أصبح عارفًا بأسرار إيلوزيس. (المترجم).

(49) خمس جمل تبدأ من يبدو أنك لا تملك... إلى «تمييزات دقيقة» أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(50) فحتى القطبين، وخط الاستواء والمتوازيات في القبة الزرقاء هي من ذات هذه الطبيعة، في السماء، ليس من شيء مثل هذا، لأن السماء لا تدور [في فلك].

(51) «من وصف الحقيقة...أثناء التفكير والتأمل» يضم حاشية: اقتبست من Cogitata 391.

(52) يكتب شوبنهاور هذه الكلمة بشكل خاطئ، مما يجعل المترجم يتيه بين عدة احتمالات. وهذا ما أوقع أكثر من ترجمة في خطأ تأويل هذه الكلمة. (المترجم)

(53) في العصور القديمة، كانت السماء تتألف من أربعة أفلاك، من بينها السماء العليا، موطن الآلهة التي تأوي النار الأبدية، أي النجوم. تتوزع السماء، في مختلف الحضارات، إلى مراتب ومدارج لا تقع تحت حصر، خاصة بالنجوم، والمذنبات، والطيور، والأرواح، والرياح، والأمطار

سماوات. كانت فكرة «السماوات التسع» رائجة في المسيحية في العصر الوسيط، حتى أطراف شمال أوروبا. كان العدد سبعة أو تسعة متداولًا كذلك بين الشعوب الأورالية ـ الألتانية. فيما كان مكسيكيو ما قبل الغزو يعتقدون بوجود تسع سماوات، والألغونكيون اعتقدوا في اثنتي عشرة سماء، والأزتك في ثلاث عشرة سماء. أما شعوب البامبارا الأفارقة، فقد كانوا يحسبون أن السماوات تتراصف في سبع طبقات، والسماء السابعة هي مملكة الإله فارو وخزان المياه التي تتنزل على الأرض في شكل غيث فيه منافع للناس. (عن الترجمة الفرنسية، بتصرف).

(54) لا تحمل الكلمة عين المدلول الذي باتت تستخدم به في زمننا الراهن، سواء الموضوعي منه أو الإيديولوجي، وإنما تعني على وجه الإجمال عامة الناس من غير رجال الدين. (المترجم).

(55) هكذا سنترجم هذه العبارة، احترامًا لسياقها التاريخي، لأن لهذا الوصف، من جهة، مدلولًا تطور بتعاقب الأجيال والعصور ومتغيرات التاريخ. ومن جهة ثانية: أن شوبنهاور يوظف في نصه مصطلح العقيدة المحمدية ومصطلح الإسلام. وستأتي فرصة لاحقة لنفيض في توضيح بعض ملابسات ذلكما السياق والتاريخ. (المترجم).

(56) «كان الامبراطور نفسه يتبع المذاهب الثلاثة كلها، كما يعي وحدتها»: عبارة أضافها شوبنهاور بخط يده إلى النسخة A.

(57) يقول حرفيًا: «... على أنها إقطاعيات معارة من قبله هو.» (المترجم).

(58) يقصد الملكة فيكتوريا المولودة في العام 1819، والتي وصلت سدة الحكم سنة 1837. (المترجم).

(59) على عكس ترجمات أوروبية ارتأت أن تترجم الاسم العلم بسانتا كلوز (2001) أو مساعد القديس نيكولاس أو من ذهب به الخيال أبعد، كالترجمة الفرنسية التي اقترحت ترجمة البعبع: ذلك الكائن الخرافي المخيف. فشوبنهاور كان يقصد الخادم روبريخت المعروف كذلك بكرامبوس في أستراليا وبافاريا الذي هو مساعد القديس نيكولاس، وهو يحمل كيسًا وفي يده قضيب يضرب الأطفال العصاة. وقد كتب عنه على سبيل المثال: روبرت شومان في مجموعته الخاصة بالأطفال (1848)، والشاعر والروائي ثيودور شتورم قصيدة تحمل اسمه (1862). (المترجم).

(60) يتناول هذا الإصحاح قصة مذبحة العمالقة التي أمر بها الرب صموئيل: «فالآن اذهب واضرب عماليق وحرموا كل ما له ولا تعفُ عنهم، بل اقتل رجلًا وامرأة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا» (الإصحاح 15: 3) وكلف صموئيل شاول المذبحة. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(61) «حسنًا إذًا... المذبح» أضيفت بخط شوبنهاور إلى النسخةA.

(62) أو سراج الليل أو الديدان المتوهجة: نوع من الحشرات المضيئة. (المترجم).

(63) فريدريش الثاني (Friedrich II, 24 يناير 1712 ـ 17 أغسطس 1786) ملك بروسيا (1740 ـ 1786) من سلالة آل هوهنتسولرن. اشتهر بدهائه في الحملات العسكرية وفي تنظيم الجيوش البروسية. صار يعرف بفريدريش العظيم (Friedrich der Große) وكان يُلقب بلقب فريتس العجوز (Der Alte Fritz). تميز في مقتبل حياته بمحبة الفلسفة والفنون والموسيقى أكثر من فنون الحرب. كما كان فريدريش من دعاة الحكم المطلق المستنير. راسل فولتير لسنوات عدة، والذي جمعته بالملك صداقة حميمة، وإن اضطربت في بعض الأحيان. قام بتحديث البيروقراطية البروسية والخدمة المدنية وعزز التسامح الديني في أرجاء مملكته التي امتدت إلى بولندا. وقد رسم المؤرخون الألمان في القرن التاسع عشر صورة رومانسية لفريدريش أظهرته بصورة المحارب العظيم الذي تحلى بصفات القيادة والكفاءة والإخلاص في العمل الذي أدى في النهاية إلى بروز دور بروسيا في أوروبا. (المترجم).

(64) Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain (1795). ربما بسبب أن شوبنهاور يعتمد على ذاكرته في الإحالة على بعض المؤلفين فهو اكتفى فقط بتقدم العقل البشري. (م)

(65) بالفرنسية في النص. انظر طبعة فران Vrin, 1970، الصفحة 83. لكن كوندورسيه يحيل على «تحطيم» الآلهة الرومانية في نهاية الإمبراطورية، العبارة التي تلي هذا الاقتباس هي: «قريبًا ستصبح المسيحية حزبًا قويًا». شوبنهاور يبدو وكأنه يشير إلى أن المصير الذي ينتظر إله المسيحيين هو نفس المصير الذي آلت إليه الآلهة الرومانية، ولذات السبب. حاشية الترجمة الفرنسية، ص 526.

(66) حرفيًا: عن الإنسانية الأوروبية. (المترجم).

(67) كعادته، لا يشير شوبنهاور إلى المصدر. (المترجم).

(68) يقصد هنا الصليب الذي صلب عليه المسيح. (المترجم).

(69) معتقد كلتي كان ينهض فيه الدرويديون بدور الوسيط بين البشر والآلهة، كما كانوا ينظمون الشعائر والطقوس الدينية، ويسدون النصيحة والمشورة للزعماء السياسيين، وقد كانوا موسوعيين يجمعون بين التاريخ واللاهوت والحكمة والعلوم السرية والقضاء... وقد كان بخاصة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متفشيا في بلاد الغال ومناطق أخرى من أوروبا والأناضول. أطلق عليهم المسيحيون وصف جماعة السحرة الأشرار وقد بادت هذه المنظومة بظهور المسيحية. (المترجم).

(70) نسخة وثنية جديدة للدين الاسكندنافي القديم. وأودين هو إله الحرب في معبد الآلهة الاسكندنافية. (المترجم).

(71) تصحيح بخط اليد. ورد في الطبعة الأولى «القرن الثالث عشر».

(72) بالفرنسية في النص الأصلي. ولربما هي إشارة محتملة إلى المجتمعات القسطانية التي كانت تحكم في قضايا ذات صلة بالحب العذري. هامش الترجمتين الإنجليزية والفرنسية.

(73) أي قدح الخمر الكبير. (المترجم).

(74) هذه الكلمة تتكون من شقين: «Minne» وتعني الحب العذري، و«sängerei» التي تدل على شاعر منشد. لكن شوبنهاور هنا يوظف الكلمة المركبة في معناها الاحتقاري التهكمي، وهذا هو المعنى هو الذي حاولنا أن نثبته أعلاه. (المترجم)

(75) تعني المحسن، وأيضا القديس الشفيع في ألمانيا. سانت بونيفاس (باللاتينية: Bonifatius) (حوالي 675 ـ 5 يونيو 754)، ولد بـ اسم Winfrid, Wynfrith، أو Wynfryth في مملكة وسكس بإنجلترا الأنجلوسكسونية، كان شخصية بارزة في البعثة الأنجلوسكسونية التبشيرية إلى الأجزاء الألمانية من إمبراطورية الفرنجة أو أرض الفرانك خلال القرن. (المترجم).

(76) انظر بهذا الصدد كتاب أرسطو «في جبل القديس ميشيل.. الجذور اليونانية لأوروبا المسيحية» لصاحبه سيلفان غوغنهايم، لوسوي، 2008. هامش الترجمة الفرنسية.

(77) يوظف هنا شوبنهاور الكلمة الإنجليزية.

(78) يقول شوبنهاور حرفيا:... أساسا متينا لها (die Grundlage bildet). (المترجم).

(79) بالفرنسية في النص. (المترجم).

(80) هذه الفقرة «بصفة عامة يمكن القول... بأفعالهم وأعمالهم» أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(81) «Lobgesänge» أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(82) «كذبًا»، و«ما يجعله بالأساس اليوم الأخير من الأسبوع»، و«يوم الشمس (diem solis)»، و«هذا اليوم الأول المجيد الذي يفتتح به الأسبوع». كل هذه العبارات أضيفت بخط يد شوبنهاور إلى الطبعة A. (هامش الترجمة الإنجليزية) في حين أن كل الترجمات الأخرى لا تشير إلى هذا الأمر.

(83) يورد شوبنهاور الجملتين باللغة الإنكليزية، وإن كان مبتدأ الجملة الثانية خاطئًا. (المترجم).

(84) بالإنكليزية في النص الأصلي. (المترجم).

(85) من «هؤلاء الشياطين في شكل بشري...» إلى «النعيم الأبدي»: أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(86) «هذا الجنون الدموي الذي ما كان للقدامى أن يتخيلوه» و«فكر في الطرد والإبادة الوحشية... من إسبانيا» أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(87) أو حمام الدم الباريسي أو مذبحة سان برتيليميه (Pariser Bluthochzeit or Bartholomäusnacht): هي ليلة 24 أغسطس 1572، وبأمر من الملك شارل والملكة الأم كاثرين دي ميديسيس، ستجز أعناق ألفين من الهوغنتوت (جماعة دينية فرنسية كان أعضاؤها من البروتستانت) في باريس. كان الهدف من المذبحة استئصال شأفة البروتستانت نهائيًا، وذلك خوفًا من سطوة وانتشار البروتستانتية. (المترجم).

(88) «Ad majorem Dei gloriam.» (من أجل مجد الله الأعظم) هذا شعار اليسوعيين. (المترجم).

(89) «Neueste Nachrichten aus dem Reiche Gottes»: مجلة دورية كانت تعنى بأعمال وأنشطة البعثات. في سنة 1856 صادفت السنة الأربعين من وجودها. حاشية وضعها شوبنهاور بنفسه في الطبعة A.

(90) اسمه أبو القاسم محمود بن سُبُكتِكين الغزنوي (ولد في 2 نوفمبر 971م ـ وتوفي في 30 إبريل 1030م) المعروف بـ اسم محمود الغزنوي هو حاكم الدولة الغزنوية في المدة من عام 998م إلى 1030م في زمن الخلافة العباسية. وقد لُقب بسيف الدولة، ويمين الدولة، وأمين الملة، والغازي، وبطل الإسلام، وفاتح الهند، ومحطم الأصنام، ويمين أمير المؤمنين. ولكنه اشتهر بـ اسم السلطان محمود الغزنوي. ارتفعت الدولة الغزنوية في فترة حكمه الى الأوج في قليل من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزمن بفضل همة محمود وحسن قيادته، إذ استطاع أن يغلب السامانيين على أمرهم وأن يغزو الهند. كان محمود الغزنوي نصيرًا كبيرًا للأدب والفنون، إذ كان يعيش في عهده كثير من العلماء والشعراء، أشهرهم: ابن سينا وأبو الريحان البيروني والفردوسي والبيهقي والكسائي. (المترجم).

(91) أي ذكره.

(92) أورنكزيب عالم كير أو أورانجزيب (1618 م ـ 1707 م)، كان هذا لقب السلطان أبو المظفر محيي الدين محمد أورنك زيب عالم كير سلطان مغول الهند. كان أورنكزيب عالم كير آخر سلاطين مغول الهند العظماء، بل يعد أعظمهم على الإطلاق. وجدير بالإشارة أن أورنكزيب تعني في الفارسية «زينة الملك»، فيما تدل عالم كير على «جامع زمام الدنيا». (المترجم).

(93) ي أو أوتو دي في (بالإسبانية والبرتغالية: auto ـ fé ـ da أو auto ـ de ـ fé)، وتعني رسوم الإيمان هو تكفير علني عن الخطيئة كان يفرض على المدانين بالهرطقة أو تغيير المعتقد إبان سطوة محاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية، وكان يتبعه تنفيذ السلطة المدنية للحكم الذي حكم به على المدان، والذي قد يصل في كثير من الأحيان إلى الإعدام حرقًا. اشتهرت مواكب «الأوتو دا في» في إسبانيا منذ القرن الخامس عشر. (المترجم).

(94) غوا ولاية هندية، تقع في جنوبي غرب الهند، تحدها من الشرق والشمال ولاية ماهاراشترا وتجاورها من جهة الغرب كارناتاكا، وبحر العرب من الغرب. كانت خاضعة للحكم البرتغالي ابتداء من القرن السادس عشر، وبقيت برتغالية حتى العام 1964. (المترجم).

(95) كلمة البطش أضيفت بخط يد شوبنهاور إلى النسخة A. والحاشية: «تاسيتوس... العهد القديم»: أضيفت بخط يده أيضًا إلى A ما تبقى من المجموعة Spicilegia 470. (هامش الترجمة الإنكليزية).

(96) من Tacite (Historiae, livre V, chapitre 2); Justin (livre XXXVI, chapitre 2). ولقد أفردنا للأساس التاريخي لسفر الخروج قراءة بقدر ما هي تثقيفية وتعليمية كانت كذلك ممتعة ومسلية. ويمكننا انطلاقًا من هذا، تكوين فكرة عن الأساس التاريخي لأسفار العهد القديم الأخرى. ونرى في ذلك (في المقطع المذكور) أن فرعون الذي لم يعد يطيق أكثر في مصر السليمة المعافاة التي تسلل إليها الشعب اليهودي الذي كان مصابًا بأمراض قذرة (الجذام scabies) الذي يهدد بأن يصير عدوى جماعية، فحملوا على ظهر السفن وألقوا على ساحل شبه جزيرة العرب. من المحقق أنه أرسل في أعقابه مفرزة من المصريين ليس قصد إرجاع الشعب المرحّل، وإنما من أجل استرداد ما كانوا قد سرقوه من قبل من أواني الذهب في المعابد. من كان سيخطر على باله أيضًا أن يعير شيئًا إلى مثل أولئك الأوباش؟.. ومن الصحيح كذلك أن حدثًا طبيعيًا كان قد حال

بين المفرزة وبين اقتفاء أثرهم. فساحل جزيرة العرب كان أرضًا جرداء خالية من أي شيء، ولا سيما من الماء. وفي ذلك الزمن انبرى رجل شجاع مقدمًا نفسه على أنه حلال العقد والمعضلات شريطة أن يتبعوه ويلتزموا طاعته طاعة عمياء. لقد ادعى أنه رأى حمرًا وحشية، وما شابه ذلك. إنني أعتبر هذا مثل الأساس التاريخي لأنه على ما يظهر فهو الكلام المرسل الذي على قاعدته ارتكز شعر سفر الخروج. إن كان جوستين (يعني تروغوس بوميوس Trogus Pompéius) يرتكب بصدد هذا الموضوع مفارقة تاريخية جسيمة (بحسب افتراضاتنا وتوقعاتنا المرتكزة على سفر الخروج)، فهذا لا يهمني البتة، لأن مئة مفارقة تاريخية هي عندي أقل مساءلة من معجزة أو خارقة واحدة. إننا نرى أيضًا من طرف المؤرخين الرومانيين المذكورين كم من مرة في كل الأزمنة ولدى كل الشعوب، كان اليهود ممقوتين ومحتقرين. يمكن أن يأتي ذلك إلى حد ما من أنهم كانوا الشعب الوحيد على وجه الأرض الذي لم يسند إلى الإنسان وجودًا فيما وراء هذه الحياة، ولربما كذلك نظر إليهم على أنهم دواب، وحثالة الأرض، ولكن أساتذة الكذب العظام.

(97) «ودائمًا بأمر... الإصحاحان 10 و11)»: تغيير أحدث بخط اليد. في النسخة A: «كل هذا فعل لكي يغتصب ويسلب من أصحاب الحق الشرعيين، خلال القتل والسلب والنهب، بنفس أمر يهوه».

(98) أعجبت ابنة يعقوب بابن حمور (اسم الإبن شكيم بن حمور الحوي)، هذا الأخير سيعرض على يعقوب وشعبه عقد تحالف بينهما وأن يصيروا شعبًا واحدًا وذلك بأن يهديه كل ما في نفسه رغبة إليه. سوف يقبل يعقوب التحالف بشرط أن يختان كل ذكور شعب هيفور، وهذا ما كان. وعلى ذلك «أتى اثنان من أبناء يعقوب (لاوي وشمعون) على المدينة وقتلا كل ذكر». بعد هذه المذبحة، «أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم (دينة)، فنهبوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل أخذوه، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت» (سفر التكوين، الإصحاح 34). (المترجم).

(99) بالنسبة لمن يريد معرفة ما العهد القديم من دون معرفة العبرية، عليه أن يقرأه في الترجمة السبعينية للتوراة (Septante)، الأكثر دقة، والأكثر أصالة، وفي نفس الوقت الأجمل من بين جميع الترجمات الأخرى. سيأخذ العهد القديم هناك نبرة مغايرة تمامًا، وطعمًا ولونًا مختلفين كل الاختلاف. إن أسلوب الترجمة السبعينية، في الراجح من الظن، نبيل وساذج في آن واحد، إنه لا ينطوي على ما يمت بصلة إلى الكهنوت، ولا أي ارتياب وشك في المسيحية. وبالمقارنة مع الترجمة السبعينية. تبدو ترجمة لوثر في الآن نفسه مبتذلة وورعة، وهي على أغلب الظن غير دقيقة، تكون أحيانًا عن رؤية وبصيرة، وإطلاقًا بنبرة واعظة للكنيسة. في المواضع التي سيقت من قبل، ترخص لوثر بعض ضروب التخفيف والتلطيف والتليين التي يمكن وصمها بالتحريف: حيث يترجم مثلًا بـ«الطرد والنفي» ما يقول فيه النص «القتل» (εφονευσαν) وما شابه ذلك.

وعلاوة على ذلك، فالانطباع الذي تركته دراسة الترجمة السبعينية في نفسي كان إحساسًا طيبًا واحترامًا عميقًا للملك العظيم نبوخذ نصر (μέγας βασιλεὺς Ναβουχωδονόσορ)، حتى إن كنت ألومه مع ذلك لأنه عامل بلين شعبًا منحه إلهه أو وعده ببلدان جيرانه، والتي استولى عليها فيما بعد بالسلب والنهب والقتل، وبعد ذلك بنوا له هيكلًا. أتراه يمكن لأي شعب في ملكية إله يجعل من أراضي الجيران الأقربين كثيرًا من «الأراضي الموعودة»؟.. أن يجد في الوقت الحاسم نبوخذ نصر خاصته، وكذلك أنتيوخس إبيفان (Antiochus Epiphane) خاصته، وأن يعامل من غير صخب ولغط.

(100) هنا يذكر شوبنهاور الإسلام بالاسم على عكس ما رأينا سابقًا حين كان يتحدث عن أتباع هذا الدين الذين يصفهم بالمحمديين. ولهذا فضّلنا عدم تأويل الدين المحمدي إلى الإسلام كما فعلت بعض الترجمات كالترجمة الفرنسية و... (المترجم).

(101) العنوان الكامل للكتاب هو كالآتي

R. Spence Hardy, Eastern Monachism: An account of the Origin, Laws, Discipline, Sacred Writtings, Mysterious Rites, Religious Ceremonies, and Present Circumstances of the Order of Mendicants founded by Gotama Budha, 1800.

(102) يقول سبنس هاردي في الرهبانية الشرقية، ص 412 ما يلي «لقد أظهر رهبان بوذا القليل من العداء إزاء الأديان المختلفة التي يجاهر بها حواليهم. عدم الاكتراث هذا يفسر يمكن أن يفسر بسهولة، إذ وفقًا لمبادئهم الخاصة، فأي معارضة عنيفة، حتى معارضة الغلط والخطأ سيكون على الضد من تعاليمهم واعتقاداتهم. ولهذا السبب، فسجلات البوذية تحتفظ بحالات وأمثلة قليلة من باقي المعتقدات الأخرى. من الواجب تقديس الحقيقة، من قبل أي كان جاهر بها. البانا وحده من يملك الحقيقة الخالصة النقية المطلقة، التي لا تشوبها شائبة، ولكن كما هو الشأن في كل المنظومات ثمة نصيب من الحقيقة وشطر منها، ويجب النظر إليها على أنها أقل نجعًا وفائدة بدل النظر إليها بوصفها آفة ومفسدة مطلقة، يتوجب تدميرها بالنار والحطب. ويتم رفع هذا المبدأ أينما تشيع وتسود البوذية.

(103) أربع جمل «سبنس هاردي... إلخ.» و«لكن»: أضيفت بقلم شوبنهاور إلى الطبعة A.

(104) ترجمت في الفرنسية بضربات الخنازير وفي الإنجليزية، 2001 بـ «irregular cuts» أي الكلوم، القطع غير المنتظمة، وبضربات قذرة (2015). وهي في نظري الأقرب إلى ما قصده شوبنهاور. لأن الكلمة الألمانية المركبة تتألف من «Sau» التي تفيد معاني الخنزير (ة)، والحقير،

والدنيء، والوضيع، والقذر، ومن كلمة «hiebe» التي تعني الضربات. (المترجم).

(105) A man convinced against his will»] [..Is of the same opinion still.» Samuel Butler, Hudibras, Part II, Canto III, 54
ورد الاقتباس بالإنكليزية ويترجمه شوبنهاور في حاشية. و«إذ كما كتب في هوديبراس» خطتها يد شوبنهاور في الطبعة A.

(106) جانوس: إله روماني، وهو إله الأبواب والمعابر، كان يمثل بوجهين متقابلين في رأسه. (المترجم).

(107) من «هيا، إلى أنت محق، يا عزيزي!» أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(108) فقرة «تبرز الأجيال الزائلة... الوحي.» أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(109) الفقرة «ومن بين الكثير... في الحقيقة»: الجملة الأولى مكتوبة بخط اليد في الطبعة A. والجملة الثانية من Senilia 79.

(110) «لكن إلى حد ما... الكوميديا بأكملها»: كتبت بقلم شوبنهاور في الطبعة A.

(111) عنوان الكتاب الأصلي: Factorum ac dictorum memorabilium (أفعال وأقوال لا تنسى). كتبه فاليروس ماكسيموس (Valerius Maximus) ما بين 30 و31 بعد الميلاد. فيه جماع ألف قصة قصيرة على شكل مجموعة متنوعة من الطرائف التي تصور حياة الرومان القدامى. (المترجم).

(112) أي تاريخ هيرودوتس، الكتاب التاسع. (المترجم).

(113) «لكن حتى العديد من المقاطع... امرأة عجوز شيباء»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(114) ديونيسيا: احتفالات دينية كانت تقام على شرف الإله ديونيسيوس في اليونان القديمة. (المترجم).

(115) المحبة، وباليونانية أغابي agape ، انظر BM, 215 - 17 (Hübscher SW 4, 226 - 8). عن الترجمة الإنكليزية.

(116) انظر: Wigger's Augustinismus und Pelagianismus, S. 335. والمقصود هو غوستاف فريدريش فيغيرز الذي حاول تقديم عرض براغماتي للأوغسطينية والبيلاجيانية تبعًا لتطورهما التاريخي، سنة 1833. (المترجم).

(117) «وبهذا الاستدلال... عذاب لا نهاية له»: أضيفت بخط اليد إلى النسخة A.

(118) «بل ينقاد على العكس من ذلك... انتقام»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(119) «لا يفهم المرء بناء على أي سبب»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(120) ترجمت في الإنجليزية بالمقزز، وفي الفرنسية بالغبي. (المترجم).

(121) يعني شوبنهاور بيير بايل، والمرجع الذي اعتمده هو المعجم التاريخي والنقدي، الصادر سنة 1697. (المترجم).

(122) والإحالة إلى بايل كتبت بخط اليد في الطبعة A.

(123) الاستعادة الكلية أو أبوكاتستاسيس (باليونانية: ἀποκατάστασις؛ وباللاتينية: apokatastasis pantôn) هي إعادة البناء أو الاسترجاع أو الاستعادة إلى الحالة الأصلية أو الأولية. يقسم تفسير الاستعادة الكلية إلى ثلاثة أنواع من الاسترجاع، استرجاع يتضمن الفرد الفاضل، واسترجاع يخص الطبيعة، واسترجاع القوى الشريرة في الروح. تعني في الأديان التوحيدية القيامة أو البعث أو النشور. (المترجم).

(124) De civit (ate) Dei يكتبها شوبنهاور هكذا باللاتينية: de civit. Dei.

(125) هذا نص اقتباس شوبنهاور كما ورد باللاتينية:

«Si nollet Deus pessimas ac nefarias in orbe vigere actiones, procul dubio uno nutu extra mundi limites omnia flagitia exterminaret profligaretque: quis enim nostrum divinae potest resistere voluntati ?quomodo invito Deo Patrantur scelera, si in actu quoque peccandi scelestis vires subministrat ? Ad haec, si contra Dei voluntatem homo labitur, Deus erit inferior homine, qui ei adversatur, et praevalet. Hinc deducunt, Deus ita desiderat hunc mundum qualis est, si meliorem vellet, melioremhaberet.» (Amphith. exercit. 16, p. 104)

(126) وردت باللغة اللاتينية، وهذا نصها:

«Si Deus vult peccata, igitur facit ; s non vult, tamen commituntur ; erit ergo dicendus improvidus, vel impotens, vel cruelis, cum voti sui compos fieri aut nesciat, aut nequeat, aut neglegat.»

(127) فقرة «وكنتيجة لذهنه المتصلب... بالأفكار»: مأخوذة من Senilia 75/76.

(128) وضعها شوبنهاور بين قوسين بالإنكليزية.

(129) «وحتى الشياطين تعبث فيه فسادًا» والجملتان التاليتان «فتنظر من حواليك... إرادة الحياة»: أضيفت بخط اليد. (انظر هوامش الترجمة الإنكليزية).

(130) فقرة «أساسًا وبصرف النظر عن... الفصل الأول» مأخوذة من Senilia 78.

(131) كبيرا الآلهة الزرادشتية والهندوسية تواليا. (المترجم).

(132) فقرة «الشيطان في المسيحية... إندرا» من Senila 97.

(133) لاليتافيستارا، أو سيرة حياة ومذاهب شاكيا سينها. حرره بابو راجيندرالال ميترا، وهو يشكل المجلد الخامس من البيبليوتيكا إنديكا المنشور في كلكتا، 1848. (المحرر).

(134) فقرة «إن المسيحية تنطوي على عيب مخصوص... وقصص خيالية»: مأخوذة من Senilia 69.

(135) «وتتجلى عواقبه المؤسفة كل يوم»: أضيفت بخط اليد إلى A.

(136) «إن الدور الهام... السخافة»: أضيفت بخط اليد إلى A.

(137) BM, 226 - 32 (Hübscher SW 4, 238 - 46). ويكتب في الطبعة A: «... في أخلاقي، ص 244 (الطبعة الثانية، الصفحة 239). وفي هذا المقطع يلمع شوبنهاور إلى الفقرة 19 من كتابه «المشكلتان الأساسيتان في الأخلاق»، وخاصة إلى البرهان السابع الذي يجعل من الشفقة الوازع الأساسي الأصيل والوحيد للأخلاق، الذي ينطبق على الحيوانات مثلما يسري على كل الطبيعة. ففي هذا المقطع بالتحديد تظهر الجملة الشهيرة: «إذا وجد ديكارتي نفسه بين مخالب نمر، فسيفهم بأكبر حدة ممكنة الفرق القاطع الذي يقيمه ذلك النمر بين الأنا واللا ـ

أنا» (انظر ص 208). هامشا الترجمتين الإنكليزية والفرنسية.

(138) هذه الفروق المعجمية هي أظهر في اللغة الألمانية وبعض اللغات القارية أكثر من اللغة الإنجليزية والفرنسية، فمثلًا نقول في الألمانية: شرب (trinken) وأكل (essen) بالنسبة للإنسان و(saufen) و(fressen) تواليا. أما العربية فلا تميز بين هذين الفعلين على الأقل، وإن كان الكلب والضبع أقل حظًا، إذ يقال ولغ الكلب وولغ الضبع. وكذلك لا يقال مات الحيوان بل نفق، التي تطلق حتى على من مات على الكفرا. (المترجم).

(139) «يقع الذنب على... الاستعمال البشري»: عبارة أضيفت بخط اليد إلى A.

(140) هذه الكلمة أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(141) «يكاد المرء... الأرواح المعذبة»: مأخوذة من Senilia 1.

(142) «الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ، أَمَّا مَرَاحِمُ الأَشْرَارِ فَقَاسِيَةٌ.» (الأمثال 12:10). (المترجم).

(143) لربما لاحظ القارئ أن شوبنهاور قد استخدم هذه العبارة الجارحة أكثر من مرة، وهي عبارة كانت شائعة أكثر في العصر الوسيط. (المترجم).

* في مواعظها وتحذيراتها، دائمًا ما تستعمل جمعيات حماية الحيوانات نفس الحجة السيئة التي تتلخص في: أن القسوة تجاه الحيوانات، تفضي إلى القسوة اتجاه البشر، كما لو أن الإنسان كان وحده الموضوع المباشر للواجب الأخلاقي. وما الحيوان سوى مجرد موضوع غير مباشر، وكان في ذاته مجرد شيءا.. يا للقرفا (راجع: «المشكلتان الأساسيتان في الأخلاق» § 8 و§ 19)

(144) «بيان لجمعية ميونيخ المرموقة... مفارقة صادمة» والهامش أضيف بخط اليد إلى A.

(145) حتى لا نسيء فهم مراد شوبنهاور ها هنا، فهو يقصد بإنسان الغاب الأورانغوتان (Orangutans)، أي ذلك القرد الشبيه بالإنسان.

(146) Scenen aus dem Geisterreich (1795 - 1801)

(147) Über die Ursachen der Knochenformen

(148) فرانز لودفيغ فيك (1813 ـ 1858) أستاذ علم التشريح في جامعة ماربورغ بألمانيا.

من أشهر كتبه: علم التشريح الفيسيولوجي الإنساني (1845) وعن أسباب تشكل العظام (1857) وغيرهما. (المترجم).

(149) Vergleichende Untersuchungen über das Gehirn des Menschen und der Wirbelthiere

(150) يجري السيد فون ليبيرا ـ على سبيل المثال ـ أبحاثًا مفصلة وموسعة على وزن الدماغ بالمقارنة مع باقي أطراف الجسم. والحال أنه من الأمور المسلم بها، والتي لا يجادل فيها اثنان، منذ أن اكتشف سومرينغ ذلك، أن وزن الدماغ لا يجب أن يحسب قياسًا إلى وزن الجسم بأكمله، وإنما قياسًا إلى الوزن الكلي لباقي الجهاز العصبي (راجع، بلومنباخ، عناصر علم وظائف الأعضاء [Institutiones Physiologicae]، الطبعة الرابعة، 1821، ص 173). وهذه المعرفة هي ـ كما يظهر ـ جزء لا يتجزأ من المعارف الأولية التي ينبغي علينا امتلاكها قبل أن نشرع في إجراء أبحاث تجريبية على دماغ الإنسان والحيوانات. لكن من البديهي أن تعذيب حيوانات مسكينة لا حول لها ولا قوة ببطء بعد حتى الموت هو أسهل وأيسر من تعلم شيء ما. هذه الفقرة كانت فقرة قائمة الوجود في الطبعة A، لكن شوبنهاور في الطبعة الجديدة يضعها في الحاشية. (المترجم).

(151) الكلوفورم: سائل طيار يستخدم كبنج أو مخدر. (المترجم).

(152) يرسلون المبشرين إلى البراهمانيين والبوذيين، ليعلموهم «الإيمان الحق». لكن حين تعلم هذه الشعوب كيف تعامل الحيوانات في أوروبا، يشعرون بأعمق نفور ـ اشمئزاز تجاه الأوروبيين ومعتقداتهم الدينية.

(153) in der Hauptsache und im Wesentlichen

(154) هذا الرفيق الحقيقي الوحيد للإنسان، أصدق وأخلص أصدقائه، أنبل فتح قام به الإنسان على الإطلاق، كما يقول كوفييه (Cuvier) في مملكة الحيوان، 1817، فعلاوة على كونه كائنًا شديد الذكاء وحساسًا، فربطه بالسلاسل من الصباح حتى المساء كما لو كان مجرمًا، حيث لا يشعر بشيء سوى الشوق الدائم الذي لا يتحقق أبدًا إلى الحرية والحركة والنشاط، وحيث حياته عذاب بطيء! في نهاية المطاف، فبسبب هذه الوحشية لا يبقى كلبًا، ويتحول إلى حيوان متوحش، وغدار، متبلد الإحساس، ترتعد فرائصه بلا توقف ويتذلل أمام الإنسان الشيطان! أفضل أن يسرق مني على أن أضطر إلى أن أرى أمام عيني كل يوم مثل هذا البؤس الذي كنت السبب فيه. (انظر ملاحظاتي عن السيد وكلب حراسته، §153.). الطيور السجينة في الأقفاص تمثل هي الأخرى وحشية مشينة وغبية. وبخصوص هذه المسألة، يجب أن يكون هذا ممنوعًا قانونيًا

(155) الفقرات السبع من 177.§ «حينما كنت أدرس كطالب في غوتنغن... من الحقيقة» والهوامش الثلاثة أضيفت كلها بخط اليد إلى الطبعة A, ما عدا «على المرء أن يكون عديم جميع الحواس... ملايين خيول الجر من وجود بئيس»، فهو مأخوذ من Senilia 82.

(156) «وبصفة عامة، فهؤلاء الناس... محاضراتهم»: أضيفت بخط اليد إلى A.

(157) فقرة «يستوي أن يصنع... أتباعها»: مأخوذة من Adversaria 9.

(158) لقد شاع خطأ استعمال عبارة زند أفستا في الغرب. والصحيح هو الأفستا وهي مجموع النصوص المقدسة للدين الزرادشتي وتمثل في مجملها الكتاب المقدس لهذا الدين. (المترجم).

(159) أي ترجمة التوراة/ العهد القديم إلى اليونانية. (المترجم).

(160) الفقرة «وما يؤكد تأكيدًا ساطعًا... حيلقيا»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A. الهامش من Spicilegia 455/456.

* هل يمكن أن يعزى الفضل، الذي لا يمكن تفسيره تفسيرًا آخر. (وفقًا لسفر عزرا) الذي أظهره قورش وداريوس لليهود، الذين سمح لهم باستعادة هيكلهم، إلى حقيقة أن اليهود الذين كانوا حتى وقتذاك يعبدون بعل، وعشتار، ومولوخ، إلخ.، واعتنقوا دين زرادشت في بابل بعدما حالف النصر الفرس، وها هم الآن يعبدون أورمزد تحت مسمى يهوه؟.. بل إن هذا يتوافق مع حقيقة أن قورش كان يصلي ويدعو لإله إسرائيل (والذي لولا ذلك لكان أمرًا غير معقول وسخيفًا). (سفر عزرا الأول، الإصحاح الثاني، العدد 3 في الترجمة السبعينية للكتاب المقدس العبري). إذ أن جميع الأسفار السابقة على العهد القديم ألفت إما لاحقًا، أي بعد السبي البابلي، وإما على الأقل جرى إدراج عقيدة يهوه فيها في وقت لاحق. وعلى ذلك، نرى رأي العين الجانب الأكثر شينًا وإزراء في اليهودية من خلال سفر عزرا الأول، في الإصحاحين 8 و9، هنا يحذو شعب الله المختار حذو النموذج المشين والقاسي لأبيهم إبراهيم. فمثلما فعل هذا الأخير الذي طرد هاجر مع طفلها إسماعيل، فكذلك طردت النساء اللواتي تزوجهن اليهود في زمن السبي البابلي مع أطفالهن لأنهم جميعًا لم يكونوا من عرق موسى. ولا يمكننا قط أن نتخيل شيئًا أكثر شينًا وخزيًا من هذا إلا إذا تم ابتداع هذه الخسة والدناءة التي طبعت سلوك إبراهيم بهدف تجميل خبث ونذالة أكبر للشعب بأكمله.

(161) «في الترجمة السبعينية... الكروبيم» (Χερουβιμ): بخط شوبنهاور في الطبعة A.

(162) العنوان الكامل للكتاب: الأسطورة المقدسة وكل النظام الديني للباختريين، والميديين والفرس القدامى أو شعب الزند، نشر لأول مرة سنة 1820. (المترجم)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(163) الأفتار أو الأفتارا، في الديانة الهندوسية، نزول أحد الآلهة إلى الأرض وتجسده، ولا سيما فيشنو في صورة إنسان أو حيوان وصوره العشرة الرئيسة: السمكة، السلحفاة، الرث، الرجل ـ الأسد، القزم، والساما، وكريشنا، وبوذا، وكالسي. الكلمة تعني بصفة عامة التجسد (التمثل) وتفيد في معناها القدحي معنى البديل. (انظر معجم Littré).

(164) «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًا. وكان مساء وكان صباح يومًا سادسًا.» (سفر التكوين، الإصحاح الأول: 31).

(165) سقيفة أو خشب منصوب للتعريش. (المترجم).

(166) حرفيًا: العدم المحيي. (المترجم).

(167) جون بيير أبيل ـ ريزومات (Jean - Pierre Abel - Rémusat) ولد سنة 1788 ومات متأثرًا بالكوليرا في منتصف 1832، هو عالم صينيات فرنسي مختص بدراسة تاريخ ولغة وحضارة الصين. من أعماله: بحث حول اللغة والأدب الصينيين (1811)، وعناصر النحو الصيني (1822)، وترجمته لكتاب الفوي كوي كي أو علاقات الممالك البوذية: رحلات وأسفار إلى تارتاريا وأفغانستان والهند في نهاية القرن الرابع (1836)، الذي ألفه شي فا هيان (Chy Fa Hian). (المترجم).

(168) يورد شوبنهاور العبارة باللغة الفرنسية وهذا نصها:

«La roue est l'emblème de la transmigration des âmes, qui est comme un cercle sans commencement ni fin.»

(169) هذا نص الاقتباس الشوبنهاوري من نص أبيل ـ ريزومات:

«La roue est l'emblème familier aux bouddhistes ; elle exprime le passage successif de l'âme dans le cercle des divers modes d'existence.»

(170) وهذا نص الاقتباس:

«Qui ne connaît pas la raison, tombera par le tour de la roue dans la vie et la mort.»

(171) Introduction à l'histoire du bouddhisme (1844).

(172) هذا نصها المقابل في المتن الشوبنهاوري:

«Il reconnut ce que c'est que la roué de la transmigration, qui porte cinq marques, qui est à la fois mobile et immobile; et ayant triomphé de toutes les voies par lesquelles on entre dans le monde, en les détruisant.»

(173) يرد الاقتباس باللغة الإنجليزية وهذا نصه:

«Like the REVOLUTIONS OF A WHEEL, there is a regular succession of death and birth, the moral cause of which is the cleaving to existing objects, whilst the instrumental cause is karma (action).»

(174) يرد الاقتباس باللغة الإنجليزية في النص:

«Ignorance is the source of Passion, who turns the wheel of this mortal existence. (S. Pradbod'h Chandrodaya transl. by Taylor, Lond. 1812, p. 49.)»

(175) كلوديوس بوكانن (1766 ـ 1815) لاهوتي سكوتلندي ومبشر إنجيلي. اشتهر بكتاب أبحاث آسيوية (كمبريدج، 1811) الذي يسرد فيه رحلاته وأسفاره إلى جنوب وغرب الهند. (المترجم).

(176) يرد المقطع في الأصل باللغة الإنجليزية:

«The successive destructions and reproductions of the world resemble a GREAT WHEEL, in which we can point out neither beginning nor end.»

(177) مانو/ التشريع 12/ سانكارا/ ص103. أوبري/ نيرفانا/ ص 30 و31 يقول: «يحمل تناسخ الأرواح في السنسكريتية الاسم الغامض سامسارا، أي دائرة أو الحركة الدائرية للولادات».

المترجم: يورد شوبنهاور هذا الاقتباس بالفرنسية، وهذا نصه:

Manou, XII, 124. Sancara, p. 103. Obry, Nirvâna, p. 30 et 31 : «La transmigration porte en sanskrit le nom vague de Samsara, cercle ou mouvement circulaire des naissances.»

«في مؤلف سبنس هاردي... ص7»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(178) ربما في مجموعة كارل غرول (Karl Graul) عن كتابات التاميل، لأنه وجد في مكتبة شوبنهاور مؤلفًا بعنوان: «كتابات تاميلية نشرح منظومة الفيدانتا أو الفلسفة الأورثودوكسية للهندوسية»، 1854 (انظر HN 5, 327). عن الترجمة الإنجليزية.

(179) تقوم السنياسا (بالسنسكريتية Saṃnyāsa) على مبدأ التنازل وهي المرحلة الرابعة والأخيرة ضمن الهندوسية المكونة من نظام من أربع مراحل للحياة، تعرف مجتمعة بـ اسم أشرما، فيما تسمى المراحل الثلاث الأولى من الأشرما بـ: البراهماكاريا، وغريهاستا، وفانابراستا على التوالي. قوام السنياسا التخلي عن المساعي الدنيوية والمادية وتكريس حياتهم للممارسات الروحية. ويسمى أتباع السنياسا من الذكور الأفراد بـ اسم سينياسي بينما تسمى الإناث بسينياسيني، وهي نفس فكرة الراهب والراهبة في التقليد المسيحي أو البيكوس والبيكونيس في البوذية. (المترجم).

(180) الفقرة «ووفقًا لثبت المصطلحات لغرول... الصحراء»: مأخوذ من Senilia 71.

(181) انظر إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع، العدد 44. (المترجم).

(182) يقول شوبنهاور حرفيًا:... كانت تستند على شيء تاريخي (daß der evangelischen Notiz von der Flucht nach Aegypten **etwas Historisches** zum Grunde läge). (المترجم).

(183) المغناطيسية الحيوانية: وتعرف أيضًا بـ اسم المسمرية (التنويم المغناطيسي)، كانت الاسم الذي أعطاه الطبيب الألماني الدكتور فرانز أنتون مسمر (Franz Anton Mesmer) في القرن الثامن عشر لما اعتقد أنه قوة طبيعية خفية (ليبينسماغنيتيسمس) تملكها جميع الكائنات الحية، من ضمنها البشر والحيوانات والخضروات. واعتقد أن لهذه القوة تأثيرات جسدية، مثل الشفاء، وقد حاول باستمرار أن يحصل على الاعتراف العلمي بأفكاره، ولكن دون أن ينجح في مسعاه هذا. (المترجم).

(184) بالفرنسية في النص الأصلي.

* بالنسبة لجمهور الناس، فالمعجزات هي البراهين والحجج الوحيدة التي يفهمونها، ولهذا فإن كل مؤسسي الأديان يجترحون المعجزات. تضم الكتابات المقدسة في طياتها معجزات تهدف إلى إثبات صحة محتواها، ولكن يأتي حين من الدهر يصبح فيه أثرها عكسيًا.

تسعى الأناجيل إلى أن تعضد مصداقيتها من خلال قصص عن المعجزات، ولكنها بهذه الطريقة تحديدًا تنسف أسس صحتها.

في الكتاب المقدس، يفترض في المعجزات أن تثبت حقيقته، ولكنها تفضي إلى العكس. فحينًا يحاول اللاهوتيون أن يعبروا عن المعجزات مجازًا وطوزًا.. يسعون إلى أن يبنوها على أساس طبيعي، كيما يتخلصوا منها على نحو من الأنحاء. ذلك أنهم يحسون في سريرة أنفسهم أن المعجزة أمارة على الكذب (miraculum sigillum mendacii).

(185) جمع هذا الهامش من مصادر مكتوبة مختلفة مكتوبة بخط يد شوبنهاور: الجملتان الأوليان أضيفتا بخط اليد إلى الطبعة A, فيما الجملة الثالثة مأخوذة من Spicilegia 463، والجملتان الرابعة والخامسة من Senilia 68، 53.

(186) «من ناحية أخرى... على وجه الإجمال»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(187) هيرمان صامويل ريماروس [Hermann Samuel Reimarus] (1694 _ 1768):

كان فيلسوفًا ألمانيا وكاتبا لعصر التنوير. كان من المعتقدين بالربوبية، وهو المبدأ القائل بأن العقل الإنساني يمكن أن يصل إلى معرفة الله والأخلاق من دراسة الطبيعة وواقعنا الداخلي، مما يلغي من ثم الحاجة إلى الأديان المبنية على الوحي. كما أنكر الأصل الخارق للمسيحية، وكان أول ناقد مؤثر يشرع في التحقيق بشأن يسوع التاريخي. أثار كتابه **«ماذا كان يريد يسوع وتلامذته؟.. أو غرض يسوع وتلامذته» (Von Dem Zwecke Jesu und Seiner** Jünger) المنشور سنة 1778 جدلًا واسعا لأنه يعرض صورة مغايرة تمامًا عن صورة يسوع في الأناجيل وذلك بأن اعتبر يسوع مجرد ثوري يهودي. (المترجم).

(188) «قارن بـ 1:50 وبـ 6:15»: أضيف بخط اليد إلى الطبعة A.

(189) يقصد شوبنهاور هذا المرجع:

David Strauss, author of Das Leben Jesu, kritisch bearbeitet (حياة يسوع: دراسة نقدية لتاريخه)، 1835 _ 6.

ودافيد فريدريش شتراوس هذا، هو مؤرخ ولاهوتي عاش في القرن التاسع عشر في مملكة فورتمبيرغ (دولة وجدت بين 1806 و1918 وتقع في وقتنا الحاضر في ألمانيا). (المترجم).

(190) هي الطاولة الأسطورية التي كان يجتمع حولها الملك آرثر وفرسانه الذين يطلق عليهم «فرسان الطاولة المستديرة». وهي مستديرة الشكل رمزًا إلى المساواة فيما اختلفت القصص حول عدد هؤلاء الفرسان بين من يقول عددهم عشرة ومن يرى أنهم مائة أو أكثر. من هؤلاء الفرسان: بيدوير كاي، وغوالخماي، إضافة إلى لانسلوت وبريسفال وتريستان وجالاهاد الفارس الأكثر مثالية، والخائن موردريد. (المترجم).

(191) «الذي كان يقاتل بلا كلل... نسيًا منسيًا»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(192) تفيد العبارة التي أوردها شوبنهاور باللاتينية رولاند، وقد اقتبسها عن إيجنهارد أو إينهارد (770 ـ 840)، قامة فكرية وفنية وسياسية ألّف أول سيرة لشارلوماني، والمؤلف الذي رجع إليه شوبنهاور يحمل عنوان: «De Vita Carolis Magnis animadversionibus illustratus»، طبعة 1806، الفصل التاسع، ص 49. (المترجم).

(193) وهذا هو المقطع المقصود والذي لا يثبته شوبنهاور في الهامش:

«Néron [...] fit souffrir les tortures les plus raffinées à une classe d'hommes détestés pour leurs abominations, et que le vulgaire appelait chrétiens. Ce nom leur vient de Christ, qui sous Tibère fut livré au supplice par le procurateur Pontius Pilatus.» Tacite, Annales, IV, 44. Traduction de M. Burnouf.

(194) «وأيضًا فحياة الملك آرثر... الفصل 44»: كتبت بيد شوبنهاور في الطبعة A.

(195) اسمه الحقيقي رودريغو دياث دي بيبار (Rodrigo Diaz de Vivar) عاش ما بين 1048 و1099. عرف في المصادر القشتالية بـ اسم الكومبيدور (el Campeador,) التي تعني «سيد ساحة الوغى» وعرف عند العرب بـ اسم القنبيطور. وهو قائد عسكري ونبيل ثم أمير حرب قشتالي اشتهر بدهائه العسكري، ونسجت حول شخصيته العديد من القصص والحكايات التي اشتهر فيها بلقب «El Cid» المشتق من الكلمة العربية السيد. ونتيجة لشهرته وشعبيته، أصبح شخصية محورية في كثير من الأعمال الأدبية الإسبانية، ولعل أبرزها ملحمة السيد أشهر الملاحم الشعرية الإسبانية في القرون الوسطى. (المترجم).

(196) الرومانسيرو باللغة القشتالية وتعني تجميعة من القصائد القصيرة مستمدة من أغاني الإيماءة الإيبرية ابتداء من القرن الرابع عشر والمتوارثة من خلال التقليد الشفهي إلى حدود القرن التاسع عشر. (المترجم).

(197) يقصد شوبنهاور مسرحية السيد (Le Cid)، وهي عبارة ملهاة ومأساة (Tragi ـ comédie) من خمسة فصول، ألفها كورناي، وعرضت للمرة الأولى في 5 يناير من سنة 1637 على ركح مسرح الماري. (المترجم).

(198) المقصود بها خيمينا دياث (Jimena Díaz) أو الدونا خيمينا (1046 ـ 1116)، زوجة المغوار الإسباني روديريغو دياث دي بيبار، وخليفته على عرش بلنسية بين سنتي 1099

و1102، حينها سيأمرها ألفونسو السادس بترك المدينة للمرابطين لاستحالة الدفاع عنها لتعود أدراجها إلى قشتالة ثم لتوافيها المنية في برغش أو بالقرب منها على الأرجح. (المترجم).

(199) هذا واحد من الأسماء التي كانت تطلق في المرحلة الوسيطية في أوروبا على الشعوب المسلمة. ويطلق عليها أيضًا اسم «العرب»، و«المحمديين»، و«الإسماعيليين» أو «الهاجريين». كما كانت تعتمد مصطلحات أخرى أيضًا مثل «المور (Maures)» الذي يحيل على العرب وعلى بربر شمال أفريقيا بعد الفتح الإسلامي. فيما كلمات «إسلام» و«المسلمون» كانت غير متداولة في الغرب الوسيطي. فمثلًا ذكرت كلمة «مسلم» لأول مرة في فرنسا سنة 1551، بينما «الإسلام» سنة 1697. وقبل هذا التاريخ كانت تستخدم «شريعة الإسلام» أو «شريعة الساراسين» لتعيين الإسلام. (المترجم)

(200) الكوندوتييرو (بالإيطالية Condottiero): وهو زعيم المرتزقة، وقد استخدمتهم المدن الإيطالية منذ أواخر العصور الوسطى حتى منتصف القرن السادس عشر من أشهر الكوندوتريين الإيطاليين: ألفونسو دا فالوس، وكويدوبالدو دا مونتيفيلترو. (المترجم).

(201) لا يورد شوبنهار العنوان كاملًا، وهذا هو عنوان الكتاب بنصفه وفصه:

Recherches sur l'histoire [et la littérature] de l'Espagne [pendant le moyen âge (1849)].

(202) ترد في الطبعة A هذه الفقرة التي حذفت من الطبعة الجديدة: «وبالمثل، فاليسوعيون هم أيضًا أنصاف بلاجيين. ومن ناحية أخرى، فإن اليانسينيين (Jansenisten) هم أوغسطينيون، وقد تمثل عقيدتهم بنحو أفضل صورة المسيحية الحقة.» (المترجم).

(203) هامش من Senilia 115.

* إن أكثر الأشياء لفتًا للنظر في الكنائس البروتستانتية المنبر، وفي الكنائس الكاثوليكية المذبح. وهذا يرمز إلى أن البروتستانتية تلتمس الفهم بالأساس، في حين أن الكاثوليكية تعنى بالإيمان.

(204) التريمورتي (Trimūrti: كلمة سنسكريتية تعني الأشكال الثلاثة) هي عقيدة هندوسية تقول «إن الوظائف الكونية الثلاث من خلق وحفظ وتدمير مجسدة في براهما وفيشنو وشيفا على الترتيب». وتدعى هذه الآلهة الثلاثة «الثالوث الهندوسي» أو «الثالوث الأعظم». وتظهر الرسوم التمثيلية لتريمورتي ثلاثة رؤوس على رقبة واحدة، وغالبًا ما تشاهد ثلاثة أوجه لرأس واحد ينظر كل منها باتجاه معين (راجع: Flood, Galvin (édi.) (2003). The Blackwell Companion to Hinduism.). (المترجم).

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(205) القنطور كائن أسطوري جسده يتألف من نصف جسد بشري ونصف جسد حصان. (المترجم).

(206) أورموزد أو أوهرامازد أو أورمودز في الزروانية، وهو نقيض أهريمان الممثل الزرادشتي للشك والشر فيما أورمزد يمثل الحكمة والحقيقة والإيمان. (المترجم).

(207) في نهاية أوبرا موتسارت دون جيوفاني.

(208) اليوهيميرية (نسبة إلى اليوناني يوهيميروس الذي عاش في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد) هي «منظومة ترى أن آلهة الوثنية كان ينظر إليهم لا كأشخاص آلهة، ولكن كمجرد أشخاص بشرية مؤلهة إما بسبب الاعتراف بها على أنها كذلك وإما بسبب الجنون البشري». لم يكن يوهيمروس أول من حاول تبرير الأساطير بالتاريخ ولكن وجدت وجهات نظر يوهيميرية في كتابات كزينوفان، وهيرودوت، وغيرهما. (المترجم).

(209) «إنهم يريدون الحقيقة العارية... وسيلة أخرى»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(210) العنوان الكامل والصحيح للمؤلف هو التالي: Institutiones theologiae christianae dogmaticae, 1824. (المترجم).

(211) راجع: Karl Gottlieb Bretschneider, author of Handbuch der Dogmatik, 1814. (المترجم).

(212) أي بين نارين أو بين خطرين جسيمين أو بين أمرين أحلاهما مر أو بين المطرقة والسندان. ولكن نظرًا للحمولة الدلالية للأسطورة حافظت على مبنى العبارة الشوبنهاورية. وجدير بالذكر أن سيلا وخريبديس هما وحشان بحريان في الميثولوجيا الإغريقية. ويخبرنا هوميروس في الأوديسا أنه كان من المستحيل على السفن أن تمر بين الوحشين. (المترجم).

(213) هذا مقطع شهير في الكتاب الرابع من إميل أو في التربية لجان جاك روسو (1782)، ويصب في هذا الكتاب صاحب كتاب الاعترافات جام نقده على المؤسسة الكنسية، والدوغمائية وتبعية الفرد للقواعد والأعراف المفروضة عليه من قبل المجتمع. وعلى النقيض من روح فلسفة عصر الأنوار الذي انتمى إليه، يبدي كذلك تشككه من أن يكون العقل مصدرًا للخير والأخلاق. ويرى أن الإحساس الطبيعي والاستبطان والابتعاد عن فساد المجتمع هي المصادر الحقيقية للأخلاق وللدين الحق الطبيعي القريب من التوحيد. (المترجم).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(214) أي نقد العقل المحض، الذي ألفه إيمانويل كانط. (المترجم).

(215) «فالفيزياء والميتافيزيقا... حياة أو موت.»: مكتوبة بخط يد شوبنهاور في الطبعة A.

(216) يقصد عمرو بن العاص ولكن بأمر من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. وهذه الواقعة خلافية بين المؤرخين، حيث توزعوا بين فريق يؤكد صحتها أمثال عبد اللطيف البغدادي في الإفادة والاعتبار وابن القفطي في تاريخ الحكماء أبو الفرج ابن العبري... وغيرهم وبين من ينكرها أو لا يأتي على ذكرها كيوحنا النقيوسي وغوستاف لوبون في تاريخ العرب وويل ديورانت في قصة الحضارة. (المترجم).

(217) عن هجائيات الشاعر الروماني جوفينال الذي عاش بين القرنين الأول والثاني واشتهر بأشعاره الهزلية (انظر الهجائية السادسة، البيت الشعري: 223). (م).

(218) «المعرفة لكل نوع... سينفجر»: مكتوبة بخط اليد في الطبعة A.

(219) انظر توركاتو تاسو، الفصل الثاني، المشهد الأول. (المترجم).

(220) أي ضمير سيء، على الدين أن يملكه يمكن أن يقاس بحقيقة أن السخرية منه ممنوعة بعقوبات باهظة.

تمنع الحكومات الأوروبية شن أي هجوم على الدين القومي. ومع ذلك، فإنهم هم أنفسهم يبعثون المبشرين إلى البلدان البوذية والبراهمانية، فيهاجمون بحميا الأديان هناك من قمة الرأس إلى أخمص القدمين كيما يفسحوا المجال لدينهم المستورد ليسود. وهم يصرخون ويلتمسون الفوث حينما يجز إمبراطور صيني وتونكين مندريني رؤوس هؤلاء الناس.

Telegram:@mbooks90

الفقرة الأولى مأخوذة من Senilia 64 والفقرة الثانية من Spicilegia 458.

(221) «تقوض أركانها العلوم باستمرار»: أضيفت بخط اليد إلى الطبعة A.

(222) الكالبا (kalpa): كلمة سنسكريتية، وهي وحدة لقياس الزمان في الكوسمولوجيا الهندوسية والبوذية. ويمكن أن تمثل فترات زمنية مختلفة في المدة، فأربع كالبات مثلًا تحدد مدة خلق وفناء الكون. أما قاموس برنستون فيميز بين الكالبا الوسيطة التي توافق المرحلة التي كانت فيها الحياة الإنسانية خالدة ثم تقلصت إلى مدة عشر سنوات، والكالبا الدائمة، وكالبا التحلل، وكالبا العدم، ثم أخيرًا الكالبا التي ليس لها حد. (المترجم).

(223) «إن الدين الذي يقوم على... مملكة الشيطان»: هذه الفقرة مأخوذة من Spicilegia 292. والفقرة «إن نسخ البوذا العديدين.. دائمًا»: مأخوذة من Spicilegia 403.

(224) فقرة «إذا بلغت الحضارة أوجها... الثقافة»: مأخوذة من Spicilegia 272.

(225) «محاولة تكرار ذلك في أيامنا انتهت إلى فشل ذريع»: هذه الفقرة مكتوبة بقلم شوبنهاور في الطبعة A.

Telegram:@mbooks90

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ